الراقصون على الجمر

daralmoltaqa@gmail.com
@DarMoltaqaAlmarefa

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

ردمك: 978-977-6682-06-1
رقم الإيداع القانوني: 2018/23759

ملتقى المعرفة

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع
تصميم الغلاف الفنان/ محمد صالح

القاهرة / مصر
جوال: 00201278821670
00201003528058

daralmoltaqa@gmail.com
@DarMoltaqaAlmarefa

يوسف عبد القادر

الراقصون على الجمر

daralmoltaqa@gmail.com

@DarMoltaqaAlmarefa

إهداء

إلى أرواح أولئك المغشوشين الذين ماتوا وهم لا يعلمون أنهم مغشوشون ..

إلى كل من سار إلى جذوة النار وهو يظن أنه يسير نحو بقعة الضوء ..

يوسف عبد القادر

daralmoltaqa@gmail.com @DarMoltaqaAlmarefa

مضى زمن بعيد جدًا منذ أن غادر ذلك المكان المنقوش في ذاكرته، المكان الذي كان من الصعب عليه نسيانه أو فقدان بعض من معالمه أو حتى أدق تفاصيله، كان المكان نفسه يعيش في أعماقه، مكانٌ أضفى عليه البعد والشوق لمحة مخملية ساحرة وزاد عليه الخيال بأن جعله في أحسن صورة يمكن للمرء أن يجعلها بين ثناياه.

أما الآن فهاهو أمام رهط من الأطفال يعلمهم حفظ القرآن الكريم، يتذكر الشيخ عمر ذلك اليوم البعيد، انقشع الضباب عن ذاكرته وتجلى أمام عينيه ذلك الماضي الأليم عندما رأى وجه ذلك الصبي الذي يشبه إلى حد بعيد أخته مريم التي فارقها منذ زمن بعيد، كان للصبي ذات الوجه وذات النظرات.....

كان عمر آنذاك طفلًا، وكان الجو باردًا، كان هواء الجبل يتغلغل في العظام حتى ليخيل إليك أن القاطنين هناك ليسوا إلا جماعة من الموتى في فصل الشتاء، بيض الوجوه شاحبون وكأنهم يصارعون من أجل الحياة ولكن دون جدوى.. يتذكر عندما جاء الشيخ علي إلى بيتهم ليلًا، كانت ليلة طويلة كئيبة باردة تنذر بالمصائب.

كان عمر وعائلته، أبوه (إمحمد) وأمه عائشة وأخواه بشير وعبد الله وأخته مريم ينعمون بعيشة هادئة في مزرعة صغيرة مياه

بئرها صافية عذبة وكانت محاطة بالخضار من كل جانب، كانت أشبه بالسهل بين جبلين في مدينة (ترهونة) في شمال ليبيا.

كان عمر آنذاك ذا خيال رحب يتجاوز حدود الواقع في لمح البصر وكان عقله أشبه بجوهرة ثمينة قديمة حفظت في مكان أمين في باطن الأرض، كان الذكاء يبرق في عينيه من حين إلى أخر، لقد أدرك ربما بخياله ومع حداثة سنه وكأنما أتاه خبر من السماء بأن شقيقه الأكبر بشير قد دخل في مرحلة خطيرة من مرضه الذي لم يعرف له أسم ولا دواء وأحس بأن أيامه باتت قليلة، هذا الأمرالذي دعا الشيخ علي إلى التدخل عندما أتى من (الزنتان) صدفةً، فأمر جلل كهذا يحتاج رجلا كالشيخ علي الذي ذاع صيته وأنتشرت أخباره في البلاد كلها، فكان الناس يزعمون بأنه يطير في السماء ويمشي على الماء وحالًا للعقد وشافيًا من كل مرض وإنه ينطلق بعدك ويصل قبل أن تصل إلى أي مكان حتى ولو ركبت أسرع الخيول..

كان بشير شابًا وسيما طويل القامة أسمر البشرة غليظ العظام عريض الكتفين ذو ملامح حادة ونظرة متوقدة وقبضة يده كالصاعقة، كان كثير الحركة يضج بالحيوية، كان يقضي معظم النهار في مزرعتهم الصغيرة بين حرث وسقاية لأشجار الزيتون واللوز، كان أشبه بالفزاعة التي تخيف الطيور وتمنعهم من أكل الحبوب في موسم الحصاد، كان يذهب إلى المزرعة مع استيقاظ الطيور ويعود منها عند مغيب الشمس، إلى أن جاء ذلك اليوم

الكئيب، كان يوم سبت، عندما رجع إلى البيت في منتصف النهار على غير عادته شاحب الوجه محمر العينين ثقيل الخطى يثني رقبته ناحية الشمال، دخل من باب البيت كحيوان بري مُطارد وخر مغشيًا عليه، انتفضت أمه عائشة وكأنها مصروعة وهرعت إليه وثنت ركبتاها عند رأسه وأخذت تصيح،، ماذا بك..... ما الذي أصابك... بشير.... بشير.... ويلي ولدي ولدي... وصاحت بأعلى صوتها (وووووه عليا)، يا (إمحمد)، وكانت نادرًا ما تنادي زوجها باسمه، يا مريم يا عبد الله (وووووه تعالوا)،، فأسرعوا إليها فزعين وتعالت صيحاتهم أيضًا، ومالبثوا إلا قليلا حتى أكتظ البيت بالجيران وكثرت الطلبات والصيحات، صبوا عليه الماء..... أتونا بالبصل..... وبين محوقل ومسبح.... لا حولا ولا قوة إلا بالله.....سبحان الله..... هذه عينٌ وأصابته..... من المؤكد أنه تعرض لضربة شمس..... وصاح:

أخر أين هي الشمس؟

وأخر ماذا به إذًا؟

وأخر أذهبوا وأحضروا الفقيه سليمان، وما هي إلا لحظات حتى جيئ بالفقيه سليمان يجر عباءته وراءه فقد كان قصير القامة ممتلئ الجسم يخيل إلى كل من يراه قادمًا من بعيد أنه يتدحرج، دخل إلى البيت لاهثًا وبدأ بالصياح وكأنه قد دُعي إلى حفل صياح.... خلوا بينه وبين الهواء، خلوا بينه وبين الضوء....

ابتعدوا.... ابتعدوا.... فتراجع الجميع بين تعثر ورفس للأقدام، اقترب الفقيه سليمان من بشير الملقى وسط الزحام وراح يتفحصه ويحرك رقبته بهدوء دون أي رد فعل، فقد كان هامدًا ساكنا دون حراك وكأنه فارق الحياة فأعتقد الجميع بأن الفقيه سيقول لا حولا ولا قوة الا بالله، عظم الله أجركم، ولكنه أومأ برأسه إلى بعضهم فأقتربوا منه وقال لهم خذوه إلى غرفته، أعدوا له فراشه، وذهب وراءهم حتى دخل الغرفة.....

عُرف عن الفقيه سليمان بركة يديه في معالجة لدغات العقارب وعضات الأفاعي وذلك بوضع لعابه على مكان اللدغة أو العضة وقراءة بعض القرآن ويكون الأمر بعدها كأن شيئًا لم يكن، واشتهر بمباركته للأطفال وإبعاد شر العيون وحسد الحاسدين عنهم، فقد كان رجلًا مباركًا بشوش الوجه ذو ملامح رقيقة لاتكاد تُرى، ولم يكن يهتم بأن تكون كلمته هي الأخيرة، ولكنه كان يبدو مخيفا في بعض الأحيان، كانت نظرة واحدة إلى وجهه تكفي ليشعرمن حوله أنه الوحيد العارف بما وراء الأشياء ومن أين تؤكل الكتف،، خرج من الغرفة ناقشًا على وجهه تساؤل كبير جوابه بعيدُ جدًا، وقال في صوت مهيب وكأنه على خشبة مسرح....

– فليمضي كلٌ إلى شأنه، خيرًا إن شاء الله...

دب شيء من الخوف على وجوه الحاضرين لكن فضولهم كان أقوى من خوفهم فخرجوا في امتعاض..

لم يدرك الفقيه سليمان من النظرة الأولى كما اعتاد أن يفعل ماهو داء بشيربالضبط، ولكن غلب على عقله الظن أن الأمر لا يخلوا من (بسم الله العظيم) ذلك الشيء الغير مرغوب حتى في ذكر اسمه لشدة المقت والخوف على حدٍ سواء، ولطالما ظن كثير من المقربين من عائلة (إمحمد) أن بستانهم يعج بتلك المخلوقات الغير مرئية...

أقترب الفقيه سليمان من الحاج (إمحمد) بعد رحيل الجيران وتمتم إليه بشيء من الحذر وقال له:

أعتقد أن ابنك بشير قد أصابه مس (بسم الله العظيم) فقم بما يلزم وأدع الله له لطرد هذا الشيطان الرجيم من جسد ولدك، وأكثر من الذبائح والصدقات فلا شيء يشفي من المرض مثل الصدقة كما جاء في حديث الرسول عليه السلام (داوو مرضاكم بالصدقة)، والله المستعان على المصائب..

...ولكن الحاج (إمحمد) أبى إلا أن يدعو الناس إلى (حضرة) لطرد الشيطان من جسد ولده...

انتشر الخبر صباح الأحد كانتشار النار في الهشيم وأصبح بشير مجنونًا تلبسهُ الجن دون أي تحفظ ودون أي شك في أحاديث الناس، وعرف الأهالي أن الحاج (إمحمد) سيجمع الناس إلى حضرة عظيمة وبدأت الجموع تتوافد كأسراب نمل إلى جعران ميت فقد انتشرت روائح اللحم المطبوخ في المرق كانتشار الخبر

وأزدحم فناء البيت بالآسفين والشامتين والفضوليين والراغبين في المساعدة والذين لا شغل لهم ولا شاغل إلا تتبع أخبار الناس من مرض.... من مات.. من ذهب إلى الحج وعاد منه حيًا.. من جاءه ولد بعد طول حرمان ومن ختن مولوده...

هكذا تجمعوا في فناء البيت وبدأت الأصوات تعلوا أين الشاى... أين الحاج (إمحمد).... كان الله في عونه وبين حديث وحديث وطنين كطنين النحل دخل الشيخ المبروك صاحب الحضرة ويتبعه خمسة من معاونيه يحملون الطبول والدفوف فأخذوا زاوية في فناء البيت الذي فُرش كله بالحصير وجلسوا فيها بشيء من الكِبر وبدأت الأيادي ترتفع واحدة تلو الأخرى بصياح فيه شيء من الحماس....

... كيف حالك يا شيخ المبروك...

... كيف هي أخبارك يا شيخ المبروك...

وكان هو يرد بشيء من الغرور يغلفه بالتواضع رافعًا يده إلى الأعلى ثم منزلها على صدره مرحبًا بكل من سلم عليه دون كلام.....

عاد كُلٌ إلى حديثه وعاد الطنين كما بدء أول مرة بين مرور الأطفال يحملون كؤوس الشاي بين ممتلئ وفارغ، بين أخضر وأحمر، إلى أن سُمع صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر فقام الجميع دون انتظام يجددون الوضوء ويستعدون للصلاة..

جلسوا متقابلين بعد ما فرغوا من الصلاة، متقابلين كل أربعة أشخاص على حدة، أثنين أثنين متقابلين دون سابق تخطيط منتظرين وجبة الغداء الذي بدأت رائحته تعم المكان وتزكي الأنوف وما هي الا لحظات حتى بدأ الشبان بالخروج من وراء البيت يحملون قصاع البازين المغطاة بغطاء صنع من سعف النخيل وأخرون أخذوا مواقعهم وكأنهم في حرب وبدأ التوزيع كلٍ حسب معارفه والأقرب فالأقرب...

بعد الانتهاء من ذلك المهرجان الكئيب بدأ طوفان الشاي من جديد بين رواح وغدو وحديث له بداية هادئة ونهاية صاخبة وأخذ بعضهم يغط في نوم عميق بعد هده الوجبة الدسمة إلى أن هبط الظلام وفرغوا من صلاة العشاء وبدأ كل الحاضرين يراقبون حركات وسكنات الشيخ المبروك بصبر نافذ وتساؤل متى ستكون بداية الحضرة؟

وبينما هم كذلك ظهر عبد الله من باب البيت وهو يخطو بخطوات إلى الوراء منحني الظهر يحمل طرف الفراش الملقى عليه بشير ويحمله من الجهة الأخرى ابن عمه خليفة وتقدما به إلى الأمام ووضعوه وسط الزحام فوقف الجميع في ذهول وكأنهم لم يروه من قبل وكأنه جسم غريب هبط عليهم من السماء، وقفوا حوله في دائرة من صفين أو أكثر متأملين تتفحصه أعينهم في فضول لا مثيل له، أما في الطرف الأخر من الفناء فقد قام الشيخ المبروك

وأعوانه الخمسة بإعداد العدة والاستعداد للحضرة دون أي فضول لرؤية المريض فما أكثر ما شاهدوا من مثل هذه الحالات حتى قُتل فيهم الفضول، نزعوا عباءاتهم لاستحضار الخفة وبدأوا بإحماء الدفوف فوق نار الموقد الكبير وتجربتها بين لحظة وأخرى حتى تستوي إلى رنة هم يحددون قوتها ولا أحد سواهم.

بعد الانتهاء من تلك التحضيرات التي يرى البعض أنها أخذت وقتًا طويلا لشدة الشوق والفضول لبداية الحضرة وكان منهم من لم يشاهد حضرة في حياته، دخل الشيوخ إلى وسط الدائرة بكل عنفوان دون كلام فأخذ الحاضرون بالتباعد بشيء من الاحترام، أخذوا بقرع الطبول التي كان صداها يخرق جدار الأذن.. بدأت الضربات متباعدة شيئًا فشيئًا.... بف..... بف..... بف وأخذت بالتصاعد والأقتراب شيئًا فشيئًا حتى أخذت نسقًا واحدًا وأخذ الجميع بالتمايل على إيقاعها إلى أعلى وإلى أسفل... إلى اليمين وإلى الشمال وأرتفعت ذرات الغبار وأختلطت بدخان البخور الذي انتشر في المكان وراح البعض ينزع عنه عباءته لارتفاع حرارة المكان ويرميها إلى أي مكان، وكان بعضهم يضعها تحت قدميه خشية أن تختلط بالعباءات الأخرى فيصعب عليه إيجادها عند انتهاء الطقوس، أندمجوا مع هذا الإيقاع دون الشعور بالزمن وبالمكان في فوضى عارمة لا يحكمها أي قواعد أو قوانين... وبدأت الأصوات تنادي في غير إنتظام بترديد (الله حي الله حي الله حي)،، إلى أن وحدوا أصواتهم في صوت واحد وكأنه صوت

رجل واحد غليظ الصوت... يردد(الله حي...الله حي...) وبين الحين والأخر كان الشيخ المبروك يخرق ذلك الإيقاع المتناسق ويصيح منفردًا... ياسيدي عبد السلام فك اللجام.... وأفق الآنام...وأشفي أنت الشافي....وبعد مضي قرابة منتصف الليل بدأ بشير بتحريك قدميه بارتعاشة خفيفة وكأن السم سرى فيهما، فأخذ الامل بالحاضرين والحماس في شفاءه كل مأخذ فأخرج الشيخ المبروك خنجرًا كان يضعه في خاصرته وأمسك به بيده اليسرى وراح يطعن به نفسه طعنات متتالية ويضع يده اليمنى على فمه واضعًا فيها لعابه ثم يضعها على مكان الطعنات فلا تسقط قطرة دم واحدة، ليس ذلك فحسب، بل كان يُؤتى إليه بنار الموقد ويطرحها أرضًا ثم يرقص عليها حافي القدمين دون الإصابة بأدنى أذى ثم يأخذ خنجرًا من حديد ويقوم بإحماءه في النار حتى يتوهج إحمرارًا من شدة الحرارة ثم يُخرج لسانه ويضعه عليه فيسمع القريبون منه ذلك الصوت الذي يحدث عند التقاء شيء بارد وبشيء ساخن.. تشششش....ويشتمون من لسانه رائحة الشواء في ذهول الحاضرين وإكبارهم للشيء الخارق للطبيعة دون الأصابة بأي ضرر....

أقترب الفجر شيئًا فشيئًا وبدأت الدائرة بالتناقص وبدأت موجة البحث عن النعال، فمنهم من وجد فردًا واحدًا من نعليه ومنهم من لم يجد نعليه أبدًا وأخرون وجدوا أزواجًا متشابهة لقدم واحدة فكل النعال متشابهة لا تختلف إلا في الحجم فقط، وقبيل

انبلاج الفجر بقليل تلاشت روح المبادرة الاجتماعية تلك، ولم يبق في فناء البيت سوى الشيخ المبروك ورفاقه لأنهم سيبيتون في بيت الحاج (إمحمد) حتى طلوع الضوء وذلك لبعد المسافة إلى بيوتهم.

ظهر على بشير بعض التحسن إذ استفاق من غيبوبته ولكنه بدا غريبًا وكل شيء حوله غريب، يحرك عيناه في شيء من الريبة وكأنه يبحث عن مجهول وعلى وجهه مسحة من الدهشة والأستغراب، لم ينطق ببنت شفة ولم يستطع تحريك رقبته التي لازالت في وضع الأعوجاج ناحية الشمال...

مع بزوغ شمس يوم الإثنين خرجت عائشة وابنتها مريم إلى فناء البيت فذهلتا من حجم الفوضى التي خلفتها حضرة البارحة، وكأن حربًا قد قامت فيه، بدا وكأنه ساحة قتال،، فأخذتا بترتيب الأشياء المبعثرة هنا وهناك وإعادة الأمور إلى سابق عهدها وتفقد ما بقى على قيد الحياة من شجيرات الورد الصغيرة، حتى أن تلك السلحفاة الصغيرة التي عاشت في الفناء كفرد من أفراد العائلة وجدوها ميتة رفسًا بالأقدام، كان الغبار قد كسى كل ورقة من أوراق شجرة التوت الضخمة الرابضة أمام البيت منذ سنين طويلة، فوضى لا مثيل لها تكاد توحى للمرء أنه لا جدوى من ترتيب أي شيء.

مر الوقت سريعًا على مرض بشير وأنشغل الناس عنه وأعتادوا على الأمر، بل وكأنه ولد هكذا دون حراك، حتى أن بعضهم نسيه تمامًا وكادوا ينسوا عائلته أيضًا لقلة ظهورهم إلا

في مَأتَمٌ وعند الضرورة، فقد انشغلت العائلة بمصيبتها بين معاناة وألم وبكاء، ولو أنه مات لكان ذلك أرحم لهم من رؤيته يموت كل صباح موتًا بطيئًا أمام أعينهم، فهذا عبد الله ألزم نفسه بقضاء حاجات أخيه الضرورية فتراه بين الحين والأخر يحمله بين ذراعيه إلى الخلاء في شيء من البغض وأحيانًا أخرى في شيء من الرحمة والمحبة، وترى أباه قد تضامن مع هذا الوضع الجديد بالجلوس في فناء البيت تحت شجرة التوت العملاقة مشعلا السجائر من بعضها البعض، تتطاير أحلامه وآماله مع دخانها وينفث من خلال زفراته آلامه وهمومه، وأحيانًا كان يحرك شفتيه بكلام غير مسموع ذي لهجة شديدة حتى أنه ينسى في بعض الأحيان أنه يحدث نفسه فيأخذه الحماس ويبدأ في تحريك يده اليسرى ناصبًا سبابته إلى الأعلى في شيء من الحزم وكأنه اعتراض على أمر الله، كان كثيرًا ما ينظر أمامه بحدة لكنه كان يبدواو كأنه لا يرى أحدا، كانت عيناه تتقدان شررًا، أما أمه عائشة فقد أحالت البيت إلى مبخرة كبيرة فما من شيء يحترق إلا وضعته في نار المبخرة وهي تمر بكل غرف البيت توزع دخان البخور فيها مستنجدة بسيدي عبد السلام كي يطرد هذا الشيطان الذي أقتحم عليهم حياتهم عنوة وأحالها إلى جحيم، حتى أنها وضعت ذات مرة لفات من صوف الخراف فوق جمر المبخرة ظنا منها أن هذا البسم الله العظيم لا يحب رائحة احتراق الصوف، كانت هذه نصيحة إحدى جاراتها لعله يرحل عنهم دون رجعة، أما عمر ومريم فأخذا يجمعان قرون الخراف

ويقومان بتوزيعها على كل أرجاء البيت وذلك بتعليق بعضها على مدخل البيت وأخرى عُلقت فوق السطح من الجهات الأربع صدًا لعدوان أي روح شريرة جديدة، وعلقوا أيضًا بعض الأقمشة الخضراء على السطح حتى أصبح البيت أشبه بمزار أحد الأولياء الصالحين المنتشرة في البلاد كلها، رايات خضراء وكأنها ريات استسلام، لكن كل هذه الطقوس لم تحرك في بشير سوى عينيه وكل مطاردات عائشة وأبناءها للأرواح الشريرة باءت بالفشل.

***

كانت ظنون عائشة، كل ظنونها متجهة حول بيت سلفها منصور وزوجته، تلك الأفعى مزنة كما ترسمها في دواخلها، كان شكها في مزنة أقرب لليقين في رأسها بأن تلك الشريرة هي من دست في قبرٍ ما لُفافة من السحر لولدها بشير وذلك انتقامًا لما فعله بأبنتها سلمى فقد كان بينه وبينها مايشبه الرباط المقدس منذ الصغر وكانت تحمل اسمه وهو يحمل صك ملكيتها وكأنها نعجة أو ربما عنزينتظر ذبحها يومًا ما، فكثيرًا ما كان يتردد الحديث بين العائلتين بأن سلمى ستكون زوجة لبشير وبشير لا يتزوج إلا سلمى، ولكنه عندما شب وبلغ سن الرشد أدرك بأنه إذا ارتبط بها فسيكون كمن حفر لنفسه قبرًا ورقد فيه حيًا، فالقدر أبى إلا أن يرسم خطوطًا متعرجة لهذا الأرتباط الذي لا ذنب لهما فيه، فمن سوء حظ سلمى إنها لم تكن على قدر كافٍ من الجمال، بل إنها في وادِ والجمال

في وادٍ أخر بعيد جدًا، فقد كانت قصيرة القامة مربعة الهيئة ورأسها موصول بكتيفيها دون عنق وكان جسر من الشعر الكثيف موصولٌ بين حاجبيها وكانت المسافة بين أنفها وفمها بعيدة يميل لونها إلى الإخضرار لكثرة نزع الشعر منها، وعيناها جاحظتان بارزتان ولون بشرتها يميل إلى سمرة بقليل من الصدأ، ولكنها كانت تحمل قلبًا طيبًا مفعمًا بالحب والأمل، كان كل من يراها يشعر بطيبتها ورقة مشاعرها وصفاء قلبها ولكنه لم يكن يكفي ليحبها شخص ما أويرتبط بها طوال حياته، لم تكن قادرة على أن تمنع نفسها من الحلم، فقد حلمت حتى أتخمها الحلم وتمنت حتى طارت في السماء من نشوة الأمل، فمن يستطيع أن يمنع الأمل من التسلل إلى قلبه ثم يقضي عليه بخيبات تلو الخيبات، طالما حلمت سلمى ببشير وهي تزف إليه برداءٍ من حرير وحناء تملأ كفيها وقدميها و وشم يُدق في وجهها وزغاريد وطبول تُقرع ونسوة يرقصن في عُرسٍ يستمر سبعة أيام وسبع ليالٍ... كان حلمها بالزواج من بشيرأقوى من حلمها بالدخول إلى الجنة، كانت الصعاب تتهاوى أمام هذا الحلم القوى وتتلاشى، ولكنها كانت تعاني وتتجرع كاس الذل وهي بالقرب من ابنة عمها مريم التي لم تكن تُطيقها إلا نفاقًا فقد كانت مريم جميلة جدًا وجمالها ملأْ قلبها غرورًا وملأ قلوب القريبين منها بالغيرة والحسد، كانت تعاني من غرور مريم وتكبُرِها عليها، وفي بعض الأحيان كانت سلمى ترمقها بنظرات الحسد والغيرة وكان ذلك الوشم الصغير أسفل وجهها

هو ما يثير الحنق عندها على مريم لشدة جماله وكأنه خلق معها، وكأنه وُجد لأجل هذا الوجه الجميل، كانت مريم تحمل وجهًا ملائكيا يضئ مثل القمر في ليال الصيف الصافية..كانت سلمى قد وضعت نفسها في مصاف المظلومين والبؤساء وكانت تُمني القلب وتروضه على الصبر، تصبر على معاملة مريم لها وستصبر على معاملة زوجة عمها عائشة تلك الأفعى الكبرى كما كانت أمها مزنة تسميها، فكل امرأة هي أفعى في ظن امرأة أخرى، كانت تقول لنفسها الصبر ولا شيء سوى الصبر، لا تملك غيره ولا قدرة لها على فعل أي شيء غيره، لكن الأمل كان ينمو في أعماقها شيئًا فشيئًا، ذلك الشيء الذي بدأ يتفاقم رويدًا رويدًا وبات من الصعب جدًا الحد من سطوته، كان الأمل يدفعها بكل عنفوان وقوة إلى جنة الحلم، في طريق كلها اشواك وظلمة وحُفَر، ولكن كل هذه التنازلات وكل ما بذلته من جهد ليتعلم قلبها الصبرلم تكن تجدي نفعًا فقد صعقها ما سمعته يومًا من بشير وهو يحدث أخته مريم في البستان وكانت سلمى في ذلك اليوم قد واعدت مريم بأن تلتقيها في البستان لكي تطلقا العنان لأقدامهما وتروحا عن نفسيهما قليلا والحقيقة أن سلمى لم تكن تريد أن تطلق العنان لقدميها فقط بل لقلبها وعينيها اللتين تحرقتا شوقًا لرؤية ذلك الحلم الذي يمشي على قدمين، قبيل أن تصل بقليل رأت من بعيد بشير ومريم جالسين تحت شجرة زيتون كبيرة. لم يكونا قد لاحظا قدومها ففكرت بأن تجعل من قدومها مفاجئة لهما فيها شيء من الدعابة

وخفة الظل، لم تكن متاكدة من أن مفاجأتها ستكون سارة أم لا أو فيها بعض البله ولكنها إنساقت وراء رغبتها تلك دون تفكير وكأنها تريد أن تحسم أمرها وتعرف مكانتها عندهم بالضبط، كان عقلها الصغير يدفعها لأن تجعل من قدومها مفاجأة الله وحده يعلم إذا كانت سارة أم لا، ولكن شيطانها الفطري الذي لم ينضج بعد كان يدفعها دون أن تعلم أنه يدفعها إلى الأمام وعلى رؤوس أصابع قدميها ولهدف واحد فقط هو استراق السمع ومعرفة مايدور من حديث بينهما، عندما اقتربت منهما أكثر أدركت الأمر ودق قلبها دقات سريعة وتصبب العرق من جبينها وأحست ببرودة تعتريها، لقد شعرت بالخوف ولكنها لم تتوقف ولم تبعد الفكرة من رأسها ومضت قدمًا، نزعت نعليها لكي لا تحدث صوتًا عندما تدوس على أوارق الأشجار اليابسة ووقفت وراءهما وكأنها أفعى غير مرئية وأطرقت أذنيها فسمعت ذلك الحوار الناري الذي تمنت لو أنها أصيبت بالصمم قبل أن تسمعه فقد كان بشير يحدث مريم عن خدوجة بنت الفقيه سليمان ذات المال والجمال والنسب العظيم.....

– صحيح أنها قصيرة مثل أبيها ولكن لديها وجه ملائكي، أووه هذه الفتاة تناسبني كثيرًا ولكني لن أخطوا أي خطوة إلا إذا عرفت حقيقة مشاعرها نحوي فقد تبادلنا النظرات في أكثر من مرة، ولن يساعدني في هذا الأمر إلا أنت يا أخي فعليك بها،

– خدوجة بنت الفقيه سليمان، لقد أحسنت الاختيار فهي جميلة جدًا وهادئة ولا تكاد تسمع صوتها ستكون محظوظًا إذا حظيت بها وكانت من نصيبك، ثم أن القصر في المرأة ليس عيبًا بل ميزة جيدة فإن الناس يقولون أنك إذا تزوجت بامرأة قصيرة فإنك ستراها طوال عمرها صغيرة مثل الطفلة هههههه، هل تريد أن تتزوج من امرأة أطول منك؟

– أجابها ضاحكًا، أوه ه ه.. أن تكون المرأة أطول من زوجها تلك مصيبة كبرى.

– لا تفرح كثيرًا لأني سمعت أن ابن عم لها يريد الاقتران بها ولكنني سمعت أيضًا أنها لا تريده والفقيه سليمان رجل متزمت بعض الشيء مثله مثل أبيك، أترك الأمر لي سآتيك بخبرها...

– ليست هنا المشكلة، إنما المشكلة في تلك البومة التي بنت عشًا فوق رأسي...!

– من تقصد..؟

– تلك البوم سلمى ابنة عمك، كل ما أمر أمامها تكاد تأكلني بعينيها، ألم يخبرها أحدٌ بمقدار بشاعتها؟

أجابت مريم بضرب يدها اليمنى على ظهر يدها اليسرى وأخرجت من بين شفتيها صوت غريب يدل على التعجب (أمتاا) وأتبعت قائلة:

ما الذي تنتظره تلك المسكينة؟

أهي طامعة بالزواج منك!، صحيح أنها لا تستحي، ربما صدقت ما كان يقوله أبوك وأبوها منذ الصغر، ولكنه كلام مر عليه زمن طويل، دعك منها لا تشغل نفسك بها أنا أعرف كيف أجعل تلك الأفعى تتوقف... هذا ما كان ينقصنا... (خزيه)...

ساد صمت رهيب وكأن الصبح توقف عن التنفس، والعصافير هاجرت وكناتها، أطلق بشير العنان لأحلامه مع دخان سيجارته ورأى خدوجة في خياله وهي تزف إليه برداء من حرير وحناء منقوشة على كفيها وقدميها ووشم صغير وبخور وزغاريد وطبول كما جرت العادة في الأعراس، امتلاء قلبه بالأمل وسبح في بحر من الحلم خرج منه باحتراق طفيف بين أصابع يده التي تحمل السيجارة....

كان الصمت يخيم على كل شيء في المكان ولكن عاصفة من الأهوال ألمت بالمسكينة سلمى بعدما سمعت الحقيقة مجردة دون تزييف، كادت أن تسقط مغشي عليها من هول ما سمعت لولا أنها تداركت نفسها وتراجعت بخيبتها في هدوء شديد، كان قلبها يهدر كما يهدر السيل الجاري من أعلى الجبل وأنفاسها كحريقٍ يخرج من فوهة بركان غاضب، كانت تريد أن تبكي ولكنها لم تستطع فقد أنقبضت ملامح وجهها وأحست بأن ساقيها ترتعشان وتتجاذلان تجادلاً مريعًا وكان قلبها وكأنه سقط في أعماق جوفها، كانت تريد أن تصرخ وتسقط ولكنها لم تجرؤ،أسرعت بخطاها

إلى البيت وما إن وصلت حتى كادت أنفاسها تتقطع، ارتمت في أحضان أمها وتفجرت ينابيع من الدموع، كانت عبراتها تخنق أنفاسها وتقصيها عن الكلام، كانت تنتحب بشكل مريع، اختلطت دموعها بمخاط أنفها وبدا وجهها وكأنه محاط بغشاء مخاطي لحيوان حديث الولادة.

ارتعدت أوصال مزنة من الخوف وفقد وجهها كل الدم الموجود فيه فأضحى مصفرًا مكفهرًا وهي تسأل ابنتها عما حدث،

ماذا بك ما الذي أصابك؟

سترك ياإلهي، لطفك ياربي، تستور يا أسيادي، سلمى ماذا بك يا بنيتي؟

فلم تجب سلمى إلا بكلمة واحدة... (لاشيء)

وأستمرت بالبكاء والنحيب، كانت تطيل وتعيد، من حسن حظها أنه لم يكن أبوها ولا أخوها في البيت ذلك اليوم فأدخلتها أمها بشيء من العطف إلى أخر غرفة في البيت وأجلستها وراحت تلح عليها بالسؤال عما أصابها،

– ما الذي أصابك يا بنيتي قصي علي.

أجابت سلمى بعد أن هدأت قليلا وهي تمسح وجهها وتسحب ماء أنفها....الكلاب...، كانت تريد أن تتحدث فأعياها النطق وأمتلأت عيناها بالدموع وراحت تبكي من جديد دون أمل في التوقف، ولكن بعد الألحاح الشديد من أمها قصت عليها ما

دار من حديث بين بشير ومريم تحت الشجرة حتى أنها زادت عليه بعض الكذب حيث أكدت أن علاقة قديمة كانت تجمع بشير بخدوجة وكانت مريم هي من ترعى هذه العلاقة وكثيرًا ما التقيا في البستان في خلوة مشبوهة...

– خدوجة تأتي إلى البستان لتلتقي ببشير! خدوجة سليلة الصالحين! صحيح أنه أخر الزمان، هؤلاء بنات الشيوخ يفعلن ذلك فماذا تركن لغيرهن، ولكن هذا الأمر ليس غريبًا عنهم ربما استعانت بأبيها ومن المؤكد أن له يدا في الأمر فهو الفقيه الكبير ويعرف كيف يأتي بمن يريد بخطوط صغيرة في لفافة سحر فيها اسمه واسم أمه، ولكن لا عليك يا بنيتي لن أكون أمًا لك إن لم أجعله يعود من بستانه هائمًا على وجهه مثل الكلب لا يدري أين يذهب ولا أين يجئ، أقسم لكِ (بسيدي معمر) سأجعله يزني بأخته الكلبة مريم وأن يفقد عقله ويهيج كالحيوان وعندها فلتشبع به خدوجة أو غيرها، فلينقعوه ويشربوا ماءه...

أقسمت مزنة وهي ممسكة بطرف شعرها من الأمام وجعلته نذرًا عليها حتى لو استعانت بشياطين الأرض مجتمعين ولو أنفقت في سبيل ذلك كل ذهبها وحُليها.

كانت مزنة برغم من سنواتها الخمس والستين تتبرج بشكل مريع، كانت تلوك السواك حتى تسوَّد شفتيها وكان شق نهديها الذابلين دائمًا ما يبرز للناظرين، لم تكن تتورأي من الرجال الغرباء كما تفعل

باقي النسوة، كان الحياء لا يعرف طريقًا إلى وجهها أبدًا وكانت تقهقه في ضحكتها بشكل يتنافى مع ما تعارف عليه من قواعد الحشمة والأدب وكانت كثيرًا من تنتف شعر حاجبيها حتى تُصبح مثل كلبةٍ مسلوخة ويظهر في وجهها قبح نساء العالمين، وعندما إنفعلت في ذلك اليوم بسبب ما حدث لأبنتها تحولت ملامح وجهها إلى ما يشبه وحش لا مثيل له، فعندما تحقد بعض النساء فإنهن لا يتوانين في أن يُحلن من يكرهن إلى رماد، فهي تعرف جيدًا لمن تذهب لإنجاز هذا العمل الرهيب، نعم تعرف جيدًا أولئك الذين تحالفوا مع الشيطان لإهلاك بني البشر، أولئك الذين يملكون أقواسًا من نار يطلقون بها سهام الكراهية والغدر التي تصيب في مقتل...

فمن أولئك الشياطين من بني الإنس عجوز شمطاء تقطن أعلى الجبل في كوخ بالٍ بُني من الطين كانت تعيش وحيدة مثل البوم في أعلى الجبل وكان كوخها يبدو وكأنه بوابة إلى الهاوية ويخيل لمن يدخل إليه انه عاد بالزمن إلى الوراء وأنه لن يخرج منه سالمًا أبدًا مهما حاول، كانت الأشياء الغريبة تحيط بالمكان والتمائم معلقة في كل أرجاء الكوخ، قرون خراف صغيرة ورأس وعل محنط لعينيه بريق مخيف وكأنه يرصد كل زائر وجلد بقرة أحمر اللون علق كستار، وكان الكوخ قد فُرش بحصائر بالية، كان سريرها أول شيء يجذب نظر كل زائر فقد كان عبارة عن صندوق كبير من الخشب أغلق بإحكام بقفل من حديد يعلوه الصدأ وكان الأهالي يظنون أنه يحوى على ثروة طائلة من الكنوز والذهب فما

من زائر لها إلا وأهداها شيئًا ثمينًا أو دفع لها أمولا كثيرة ليحصل على مايريد، وظنوا أيضًا أنها وضعت عليه حارسًا غير مرئي يكسرعنق كل من يقترب منه ويصاب بالعمى كل من تسول له نفسه سرقة ما يحتويه..

كانت الشائعات قديمًا تروي قصص رهيبة حول هذا الكوخ وقاطنيه فقد كان لهذه العجوز (فجرة) زوجًا وكان لزوجها ولدُ من زواج سابق ولم تكن (فجرة) قادرة على الإنجاب وهذا الأمر ملأ قلبها بالحسرة والحقد على كل امرأة تنجب أطفالا، بدأ هذا الحقد يظهر عليها عندما علمت أن زوجة ولد زوجها تحمل في أحشاءها جنينًا لا يلبث إلا أن يخرج إلى النور فأقدمت على قتلها بوضع السم لها في طعامها وقامت بإغواء ولد زوجها وفعلت معه الفاحشة وعندما شكت بأن زوجها بدأ يشك بأمرها قتلته بالسم أيضًا وقطعت أطرافه وألقت بها من أعلى الجبل للذئاب والكلاب وهرب ذلك الشاب من الكوخ دون عقل يهيم على وجهه في أرض الله الواسعة، ويقال أيضًا أنها بعد أن أقدمت على كل هذه الجرائم من قتل وزنا ظهر لها الشيطان في صورة تيس يحمل لها بين قرنيه قوى سحرية خارقة كي تدعم بها حقدها على بني آدم جميعًا، كانت ملكة الجبل دون منازع ولكن ملكها كان زائفًا، ملك في الهواء، ومنذ ذلك الحين كان الناس في (ترهونة) يلعنونها في قلوبهم كلما مرت أمامهم وكلما جاء الحديث بسيرتها النجسة، كانوا يمقتونها مقتهم للشيطان نفسه ولكن بعضهم كان يذهب

إليها خفية كلما أراد أن يدعم حقده على إنسان ما ويتقربون إليها بالمال والعطايا، فعلى قدر المحنة تكون الكراهية، كانوا يخشونها خشيتهم للمجهول نفسه..

عقدت مزنة العزم على الذهاب إلى كوخ تلك العجوز الشيطانة تحمل أحقادها على كتفيها كجثة كلب ميت أخذ منها العفن كل مأخذ، ستذهب انتقامًا لكرامة ابنتها التي تمرغت في الوحل، ستريهم من هي مزنة..

***

كانت الغيوم الرمادية المنتشرة في السماء تنذر بقدوم الشتاء وكانت أدخنة الحطب المشتعل تحت أكوام التراب تتصاعد إلى السماء ببطء شديد من كل بستان واصلة بين الأرض والسماء في منظر رمادي كئيب، توحي إليك خطوط الدخان العمودية بأن الزمن قد توقف في مكانه وأن المستقبل قفز بخطوة بعيدة إلى اللا متناهي، كان يخيم على القرية شيءٌ من البؤس وكأنه رداء من القهر، كأنها فقدت كل أمل لها في الحياة، كان العيش فيها يرهق الأعصاب ويدفع الأهالي إلى أقصى درجات اليأس من الحياة، ربما كان ذلك بسبب قسوة طبيعتها وشتاءها القارص وحرارة صيفها الذي يشبه جهنم.

كان الأهالي يستعدون لقدوم الشتاء بصناعة الفحم وذلك بغمر الحطب تحت أكوام التراب وإضرام النار فيه ببطء دون أن

يحترق كليا فيتحول إلى فحم يستنجدون به في ليالي الشتاء الباردة وكانوا يغزلون صوف الخراف ويصنعون منه أغطية وعباءات تقيهم شر الصقيع، وكانوا يرقعون أسقفة بيوتهم احترازًا من المطر، كان يوم جمعة مثل أي جمعة حيث فرغ الرجال من صلاة الجمعة وبعد خطبة مملة ومعادة لأكثر من مائة مرة للفقيه سليمان الذي كان إمامًا للمسجد آنذاك والتي كانت تبين أثر التسامح بين الناس وأجره عند الله، في ذلك اليوم التقى الحاج منصور بأخيه الحاج (إمحمد)... سلم عليه وسأله عن حال ولده بشير، أجابه الحاج (إمحمد) بعد كدر وأه طويلة تبين عمق الألم الذي كان يعاني منه

– باقٍ على حاله دون أي تحسن يذكر، أنه أمر الله...!

تابعًا خطواتهما،كانا يمشيان في خطى هزيلة واضعين أيديهما وراء ظهريهما وكأنه نوع من التوازن، وكأنهما يساقان إلى الموت، عندما وصلا إلى بيت الحاج (إمحمد) التفت إلى أخيه منصور وقال له دون رغبة حقيقية

– هيا تفضل بالدخول، من المؤكد أن الغداء أصبح جاهزًا هيا أدخل...!

اعتذر الحاج منصور في بعض الإحراج ولكن كانت لديه رغبة شديدة في رؤية ابن أخيه بشير فتغلبت رغبته على اعتذاره ودخل مع أخيه إلى البيت وصاح بأعلى صوته مسلمًا على من في البيت،

السلاااام عليكم.... كان ذلك بمثابة إعلان عن قدومه كي يأخذ كلٌ مكانه ولكي تستر عائشة رأسها بردائها، ولكنه لم يسمع أي رد فأخذ يسعل بقوة سعلات متتالية مفتعلة ويتكلم بصوت عالٍ فربما لم يسمعه أحد عند دخوله، ولكن عائشة سمعته عند دخوله من المرة الأولى وتمتمت في سرها، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يقتلون القتيل ويمشون في جنازته وهرعت مسرعة إلى إحدى غرف البيت وفي نيتها ألا تخرج إليه وألا تسلم عليه وألا ترى وجهه المقيت المخزي، هذا البغل صاحب الشكيمة....

دخل الحاج منصور إلى الغرفة التي كانت تضم بقايا الإنسان الذي كان يدعى بشير، كانت الغرفة كالقبر لقلة دخول الهواء إليها، تقدم بضع خطوات ثم وقف لأنه لم يكن يرى بوضوح بسبب آشعة شمس الظهيرة التي غشت عينيه، اعتادت عيناه على العتمة رويدًا رويدًا وبدأت بعض الأشياء تتراءى له، رأي بشير في إحدى زوايا الغرفة نائمًا على فراش رقيق وبجانبه إناء فخاري له مقبضان مملوء بالماء، كان وجهه شاحبًا مصفرًا وكأن السائل الذي يجري في عروقه ليس دمًا أحمر بل سائل ذو لون شفاف، كانت عيناه تغوصان في محجريهما وتحوطهما هالات سوداء، كان هكيلًا عظميًا غُطي بالجلد، كان الحاج منصور ذو طباع رقيقة وكان قلبه رحيمًا ودمع عينيه قريبٌ جدًا في مقلتيه فترقرقت عيناه بالدموع وأحس بوجع في قلبه وشعر بقربه من الموت فتساءل في نفسه، يا سبحان الله كيف للإنسان

أن يضيع هكذا في لمح البصر ودون سابق إنذار، ما الذي رأه هذا المسكين من الدنيا؟

ولو أنه كان يعلم أن زوجته مزنة هي من فعلت هذا بابن أخيه لكان قتلها شر قِتلة كما تُقتل الكلاب ولكن لا أحد يعلم ذلك فكل الشكوك مجتمعة لا تشكل دليلًا واحدًا على الإدانة.

راح يفكر ويجمع عزائمه وكأنه يعض نفسه، هذا شاب صغير حصل له ما حصل، خطفه المرض من زهرة شبابه، فما بالنا نحن الشيوخ الذين امتلأت قلوبنا كفر وغلظة ونحن نضع قدمًا في الدنيا وأخرى في القبر..... ههيه يا دنيا.... كم أنت قاسية بغيضة، وأملى على نفسه بأنه سيكون أكثر قربًا من الله قدر المستطاع، خرج من بيت أخيه يحمل آلامه وعزائمه وأدار عينيه في كل مكان باحثًا عن عائشة لعله يقول لها كلمة يواسيها بها ولكنه لم ير أحدًا، تقدم إلى الباب عازمًا على الخروج دون أن يشك بأن عائشة لا تريد أن تسلم عليه أو حتى رؤية وجهه فسلم على أخيه وأنصرف.....

عاد الحاج (إمحمد) إلى غرفته على غير عادته في كل جمعة فقد كان يجلس وسط البيت وقت الغداء حيث يجتمع كل أبناءه حوله على قصعة (بازين) في جو احتفالي فيه شيء من التباهي، كان الحاج (إمحمد) يفتخر بالرجال الذين أنجبهم من صلبه، ولكنه منذ أن مرض بشير اختلفت كل عاداته وأختل نظام البيت كليًا، تذكر أنه لم ير ابنه الصغير عمر منذ يومين فنادى بصوت

مجلجل عليه فجاءت إليه عائشة مسرعة وهي تحمل بين يديها إناء من خشب فيه بعض الطعام فسألها عن عمر.

- أين عمر؟

- أنه في بيت خاله مصباح!

ردد الحاج (إمحمد) قولها، هه خاله مصباح، في شيء من التهكم والاستهزاء!

- كم من مرة يجب علي أن أقول لك بألا تدعيه يذهب إلى هناك؟

يالك من امرأة غبية مفسدة، أخوك مصباح!! رجل سفيه وشاربٌ للخمر طوال الليل والنهار يترنح مخمورًا ورائحته كالجيفة، أخبريني بالله عليك ماذا يمكن لصبي في مثل هذا العمر أن يتعلم في بيت رجل يشرب الخمر... بصق على وجهها ونعتها بأبشع الأوصاف...لعنة الله عليكم جميعًا.... استشاط غضبًا وبدأ يصيح وهو ينادي ولده عبد الله....

- عبد الله لم يرجع من المسجد بعد!

- أووووه لعله لا يرجع أبدًا، وأخذ يحدث نفسه بصوت عال ويضرب كفيه على بعضها، لا حولا ولا قوة إلا بالله، لقد ضاعت هذه العائلة واحد نصف حي، والأخر يربى من قِبل رجل سفيه وفاسد، خزيه،،

همت عائشة بالخروج من الغرفة وعندما وصلت على بعد خطوتين من الباب صاح بها

– تعالي إلى هنا أيتها الغبية، خذي معك هذا السم!

– ألا تريد أن تأكل؟

– لا أريد أن أتسمم وعندما يرجع عبد الله أخبريه أن يذهب إلى بيت خاله سليل الصالحين وأن يرجع بعمر.

تناول الحاج (إمحمد) علبة السجائر من جيب سترته الداخلي وأشعل واحدة في حنق وسحب منها عدة مجات وكأنه يفضي ويشكو إليها بهمه، راح يدخن دون أن يتخلص من رمادها فتدحرج بعضه مع جمرة صغيرة على عباءته فأحدثت فيها ثقبًا صغيرًا دون أن ينتبه لذلك، وراح يفكر في صمت وإحباطٍ شديدين كيف أن عائلته ضاعت وأخذ يقول في نفسه، واحد أصابته عين أو مسه جن أو لا يعرف ماذا أصابه وأخر لا يسمع له صوت لا يخيف حتى قطة رخو جبان أخته أكثر رجولة منه، أووووه من ذلك الشقي الصغير، لقد اجتمع كفر الدنيا كله في رأسه، هيه لقد صدق ذلك المجنون عياد، فأحيانًا تؤخذ الحكمة من أفواه المجانين، صدق عندما قال... (الدنيا واعرة تبي مال ورجال)....

كان عياد هذا رجلًا كريمًا ذو حسب ونسب، كان خيره يعم على الجميع وكان صاحب ثروة طائلة، كان يتاجر بالإبل حيث كان يذهب إلى مناطق الجنوب (الكفرة) وغات وسبها وأحيانا إلى السودان فيشتري الإبل من هناك ويسوقها في قوافل كبيرة إلى المناطق الساحلية مثل الزاوية و(ترهونة) وطرابلس وفي إحدى

سفراته تلك قيل أنه ضاع في الصحراء وقيل أيضًا أنه تعرض للسطو من قبل قطاع الطرق الملثمين وسلبوه ماله وإبله وبعدما اعتاد الناس على غيابه لمدة خمس سنوات ظهر بثياب رثة وشعر كثيف ووجهه عليه أثار حروق من الشمس، ظهر دون عقل وقد سلب ماله وعقله ومنذ ذاك اليوم وهو يجوب القرية جيئة وذهابًا وهو يردد كلمته المشهورة... (الدنيا واعرة.. تبي مال ورجال)...

ردد الحاج (إمحمد) بعدما ألقى عقب سيجارته بعنف، الدنيا وعرة تريد مالًا ورجالًا.. ههيه الله غالب على أمره، المال لست وأياه صديقين منذ زمن بعيد أما الرجال فقد ضاعوا الآن، فكر في نفسه لو أنه كان صاحب مال لتزوج من امرأة أخرى وأخرى وينجب من الأولاد مايسد به عين الشمس، ولكن هيهات فلم يبق في العمر متسع لهذه الأفكار، لكن الزواج بأخرى فكرة جيدة، أخبرته نفسه، فرد على نفسه موافقًاعليها

- صحيح أني بلغت الثالثة والسبعين من العمر ولكني مازلت فتيًا، ثم أن الزواج لا يحتاج إلى مال كثير فالنساء هنا أرخص من النعاج، قال ذلك وهز رأسه وتبسم ابتسامة خبيثة فقد أعجبه ما قاله لنفسه، فحرك يديه وأثنى شفتيه إلى الأسفل وأتبع قائلا لنفسه - هذا ليس عيبًا ولا حرامًا، ثم أن من حقي أن أتزوج من واحدة وأثنتين وأربع، فإن شرع الله قد أحل لي ذلك، خاصة وأن هذه العائلة دخلها الشيطان وأحرقها بالكامل وقضى عليها، مدد قدميه

على الفراش وأستسلم لنعاس القيلولة الذي لا يقاوم دون أن يُلقي بالًا لصوت معدته الذي بدأ يقرقر من الجوع وأستسلم لبحر من الحلم....

عندما رجع عبدالله من المسجد كانت عائشة واقفة وراء الباب في انتظاره وبمجرد دخوله تلقته بلهفة شديدة وقالت له بسرعة البرق أذهب إلى بيت خالك وأحضر أخاك عمر فإن أباك غاضبٌ جدًا وشياطين الأرض كلها تقفز فوق أنفه!

– حسنًا أمهليني فقط حتى أسقط في جوفي لقمة أو لقمتين فان الجوع قد أهلكني!

– السم الزعاف يسقط في جوفك، إنك مثل البهائم لا تفكر إلا في بطنك، اذهب حالًا وفي هذه اللحظة وبسرعة، وعندما تعود يمكنك أن تتسمم فإن الطعام لن ينبت لهجناحين ويطير!

خرج عبد الله وهو يلعن في نفسه أباه وأخاه عمر وخاله والدنيا بأكملها وعندما وصل إلى بيت خاله مصباح صب جام غضبه على الباب وطرقه عدة طرقات قوية، فتحت له ابنة خاله الضاوية الباب وقالت هون عليك يا عبد الله لقد كدت أن تكسر الباب، وبمجرد أن رأها وسمع صوتها الذي يشبه الغناء تلاشى غضبه ونسي ما جاء لأجله، فقد كانت الضاوية أسمًا على مسمى، كانت تضيء مثل القمر، كانت جميلة وجمالها يُذهب العقول ويُرخي العزائم ويغري كل من يراها بالحب والغزل، كانت

عيناها صافيتين وانفعالات وجهها مجتمعة تعطي شعورًا لكل من يراها بانجذاب رغم إرادته، كان لها جسدًا مصقولًا من جميع جوانبه، ونهدان لايخضعان لأي جاذبية وشعر بُني كثيف كالحرير ينساب بغزارة على كتفيها بوجه مدور وعينين عسليتين وأنف دقيق وحاجبين مثل الأهلة ويكاد العسل يقطر من شفتيها، وقف مشدوها ينظر إليها لبعض الوقت وكأنه يراها لأول مرة والحقيقة أن كل من يراها في كل مرة يشعر أنه يراها لأول مرة، كانت غوي لعوب تُذهب العقول وتذيب الأفئدة، أتبعت قائلة

– كيف حالك يا عبدالله وكيف حال أخيك بشير وعمتي عائشة؟

أجابها في بله،، أه إيه!

– تفضل بالدخول... وابتسمت في خبث!

رجع إلى عبد الله عقله الذي كان يسبح في ملكوت بعيد وحك فوق أذنه في شيء من الارتباك وقال:

– إني على عجلة من أمري جئت فقط لأخذ عمر!

صاحت بصوت رقيق فيه ذعر، يا عمر يا عمر!

خرج عمر مسرعًا من وراء البيت مصفر الوجه مرتبك بعض الشيء وفمه ملئ بأوراق من شجرة الليمون التي كانت وراء البيت وهو يفرك يديه ببعضهما لكي يزيح عنهما رائحة التبغ من فمه ويديه وقال لكي يبعد عن نفسه الشبهات، ماذا تريد؟

لا أريد أن أعود إلى البيت، أريد أن العب هنا!!

تعالى معي الآن ثم ستعود فيما بعد.... هيا تعال!

انصاع عمر إلى هذا الأمر وخرج مع أخيه ولحقته الضاوية بقبلة في الهواء وهي تنظر إلى عبد الله، ودعها عبد الله بنظرات حارقة حتى كاد أن يحيلها إلى رماد وفي طريق العودة إلى البيت صب سخطه على عمر بضربه أسفل رأسه ضربات خفيفة وهو يتوعده بما سيلاقيه من أبيه في البيت. دخلا إلى البيت دخول اللصوص دون أن يشعر بهما أحد وكان الحاج (إمحمد) لازال في قيلولته الطويلة وكانت أطول قيلولة بالنسبة لعمر فقد كان ينتظر العقاب بفارغ الصبر فانتظار العقاب أشد عليه من العقاب نفسه..

بعد انصرام القيلولة في وقت العصر نهض (إمحمد) مسرعًا فتوضأ في عجل لكي يلحق بصلاة العصر مع الجماعة دون أن يلقي بالًا لعمر مع أنه قد مر أمامه عدة مرات وهو يستعجل العقاب وقد سأم الانتظار، ولكن الحاج (إمحمد) لم يقل له ولو كلمة واحدة.

كان الحاج (إمحمد) فيما مضى يدخن علبة سجائر واحدة في اليوم ولكن منذ أن خطرت بباله فكرة الزواج بأخرى أصبح يدخن علبتين كل يوم وأصبح أكثر حديثا مع نفسه وأكثر ابتسامًا، أخذت الفكرة تكبر في رأسه رويدًا رويدًا حتى أصبحت بحجم الجمل وصار حلمه يتفاقم في قلبه، وأخذ يقنع نفسه بها شيئًا فشيئًا

وكان من المفترض عليه أن يكون أكثر اهتماما بنفسه وبصحته فكان عليه أن يخفف من تدخينه المفرط حتى يستعد لما هو مقبل عليه من حياة جديدة، فأصبح مهتما باقتناء زيت الزيتون الذي كان لا يطيقه سابقًا ولكنه غير رأيه به لما سمع عنه أنه يطيل العمر ويبعد المرض ويجعل الإنسان أكثر شبابا وأكثر قوة، وأخذ يفتعل المشاكل في البيت وكان من زبيبة يسكر كما يقولون، كان يبدو مضطربًا أكثر الأحيان مثل صبي مراهق وأصبح وجه عائشة في عينيه كوجه عنز جرباء يبشر بعشرات السنين من الجفاف، كان كثيرًا ما أتهمها بأنها تريد قتله بالطعام الساخن تارة أو بالأكل المالح تارة أخرى وأحيانا بكأس الشاي الذي زاد السكرفيه عن حده، وكانت عائشة تقابل هذا الهجوم بصبر واسع وصدر رحب معللة ذلك بأن به من الهم ما يكفيه وأن مرض بشير قد جعل منه رجلا سريع الغضب روحه في أنفه، وأقنعت نفسها بأن تصبر، وإلا من تُراه سيصبر عليه أن لم تفعل فعِشرة العمر والسنوات الطويلة وما بينهما من الخبز والملح يحتم عليها ذلك.....

كان عمر قد عاد إلى بيت خاله عدة مرات دون أن يبالي، وكان الحاج (إمحمد) أيضًا لا يبالي إن دهب عمر إلى بيت خاله أو إلى جهنم الحمراء، فلا فرق عنده، حتى أن عبد الله جعل من عمر ذريعة له ليذهب هو أيضًا إلى بيت خاله لكي يمتع ناظريه برؤية الضاوية تلك الفاتنة اللعوب ذات الوجه الساحر والبياض الناصع، فكان يمكث هناك بالساعات دون الشعور بأية مسؤولية

وكانت الضاوية وفي غفلة من والديها وأخواتها الأصغر سنًا تثيرعذابات عبد الله وتزيده همًا على همه وخاصة عندما ترتدي فستانًا يُبرز كل مفاتنها دون احتشام، وكانت تتعمد في وجوده أن تغسل كل الملابس المتسخة في البيت، كانت تلهب له مشاعره بإغراء مطمئن، لقد كانت تدرك جيدًا أنه لا يحرك ساكنًا ويكاد الخجل يقتله، حتى أنها في أحد الأيام سخرت منه وهي جالسة تفرك بعض الأقمشة وتغني بصوت عال وكان هو هو يجلس قريبا منها واضعًا قدمًاعلى قدم وكان قد سكب بعض الشاي على ملابسه في ارتعاشة عن غير قصد فأشارت عليه أن يخلع سرواله وسوف تقوم بتنظيفه..... وقهقهت بضحكات مثيرة.. لا تخجل مني فأنا مثل أمك... وأغرقت نفسها بضحكات تثير حتى الجماد، فنهض مسرعا نحو الباب وهو يحاول إخفاء فضيحته ولكن دون جدوى فهو لم يهيئ نفسه لنهوض مفاجئ ورحل من البيت مذعورًا ككلب أصيب بعيار ناري لا ينقصه إلا العِواء، وبعد أن أستقر في الطريق وهدأ روعه قليلا وتلاشى توتره أخذ يفكر في نفسه ويلعنها ويلعن شيطانه....

أه ه... أنه من المفترض أن تخجل هي مني، ولكن ما حصل كان عكس ذلك تماما لقد خرجتُ من هناك مثل طفلة تخشى الاغتصاب، تنهد تنهيدة طويلة كادت النارأن تخرج من جوفه، أ ه ه لو أن الشيطان أمهلني بعض الوقت لفعلت ما كان يجب علي أن أفعل، ولكن حتى شيطاني جبان مثلي ولا يجدي نفعا في مثل هذه

المواقف العنيفة، أتفوه... (خزيه).. أيها الجبان... وراح يلعن عقله الذي لم يسعفه وتصاغرت نفسه حتى كاد لا يشعر بها، ولكن الشيطان ظهر في رأسه في الوقت المناسب وأنقذه من حسراته ولعناته ووعده بأن يمهله الوقت الكافي في المرة المقبلة، ولكن عليه أن يهيئ نفسه جيدًا وأن يكثر من الذهاب إلى بيت تلك الجنية المضيئة وسوف يتقاسم معه المهمة.

لملم عبد الله ثقته المبعثرة من نفسه بعد أن طمأنه شيطانه الملعون وراح يجمع قواه الخائرة ويتوعد نفسه ويرجوها بألا تخذله في المرة المقبلة، حدث نفسه أن الضاوية مثل ثمرة التين التي بالغت في النضج كثيرًا وأن على أحدهم أن يقطفها ويتذوق عسلها الشهي..

كان عبد الله إنسانا خجولًا جدًا وكان أبله بعض الشيء وجبان، كان يدرك ذلك تمامًا مما جعله يلزم نفسه بعزلة تامة زادت همه همًا حتى صار يتلعثم في حديثه لقلة لقاءه بالناس وكان وجهه كثيرًا ما يحمر لأتفه الأسباب ولهذا فهو أبعد ما يكون عن النساء وخاصة طويلات اللسان منهن فكثيرًا ما سخرن منه وتغامزن عليه وكانت الجريئات منهن مثل الضاوية لا يصنفنه من الرجال أصلاً مما خلق لديه شعور بالضغينة تجاههن فكان خجله المزمن هو الحائل بينه وبين أي مشروع تشاركه فيه امرأة وكان إذا رأي إحداهن في الطريق أو في أي مكان أخر يتعثر في مشيته ويحفر لعينيه في

الأرض عميقًا حتى لا يضطر بأن يضع عينيه في عين أي أنثى تمر أمامه، وكانت نفسه تعلو إلى حلقه وتخنقه ويشعر بأنه في مأزق كبير ويحتاج إلى جهد جبار للخروج منه، حتى أنه كان يخجل من سلمى ابنة عمه منصور وكانت إذا رأته يمتلئ قلبها بالراحة والزهو فهو الوحيد الذي كان يُشعرها بأنها تنتمي إلى فصيلة الآناث، ولكن كل هذا الخجل والحياء وهذا الحاجز المتين الذي بينه وبين النساء كان يتلاشى أمام الضاوية دون عناء وكأنها مخلوق أخر، لم يفكر ولم يحاول أن يجد لهذا الأمر تفسيرًا منطقيًا، هذا ما كان يشعر به دون أي تفاصيل، لم يفكر حتى مجرد التفكير بالزواج منها يوما فقد كانت بالنسبة إليه حلمًا بعيد المنال وكان قد أخذ على نفسه عهدًا بأن يعشقها عشق الارض للقمر فلن يضر جمالها إلا بالنظر فهو يعرف تمامًا بأنها لن ترضى به زوجًا حتى لو خلت الأرض من جميع الرجال وبقى هو وحده عليها فهو يعرف جيدًا أنه كان في نظرها شبه رجل وأقصى ما يمكنه فعله هو النظر بعينين حارقتين فقط.. ولكن ما حصل في المرة الأخيرة أثار حفيظته وحفيظة شيطانه وأيقظ وحشًا في نفسه كان يعتقد أنه غير موجود إطلاقًا، لهذا أبرم اتفاقًا بينه وبين شيطانه للإيقاع بها في مرات مقبلة.

***

كان الحاج (إمحمد) قد عزم أمره على الزواج، حيث أستأنف رحلة البحث عن زوجة تناسبه من بين الأرامل

أوالمطلقات والعوانس وكانت رغبته واضحة جلية بأن تكون عروسه الجديدة ذات جسم ممتلئ ومكتنز غير بدينة تظهر عليها البدانة بشكل واضح وغير نحيفة يظهر منها الضعف بشكل مقزز، يريدها وسطٌ بين ذلك كما أخبر أحد أصدقائه ذات مرة بأسلوب فيه بعض الفكاهة....

لا أريدها أن تكون عنز يغلب صوتها على حجمها أو بقرة تقصم ظهري وتعجل في أخرتي، عليها أن تكون قادرة على ترميم عظامي التي نخرت فيها السنين، وأن تضخ الدم في عروقي التي شارفت على الجفاف....

مكث وقت طويل وهو يبحث عن تلك الأوصاف وبات يحدق في جميع النساء اللواتي يلتقي بهن في الطرقات أو ممن يجئن إلى بيته من الجيران والأقارب وأصبح يسأل عن كل واحدة من تكون وما وضعها، كان يحدق في كل امرأة من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها، كان يتحين الفرصة في كل مرة لعل رداء إحداهن يرتفع قليلا فيتمكن من رؤية قدميها من تحت ليرى إن كانتا ممتلئتين لحما أو رقيقتينلا يستحقان العناء فهو يعرف جيدًا من خلال خبرة السنين بأن من كان أسفل قدميها ممتلئ ستكون ذات لحم طري لذيذ يرم العظم ويضخ الدم في العروق، إلى أن رأي يومًا بالصدفة تبره أخت الفقيه سليمان وهو عائد من المسجد بعد قضاء صلاة الظهر وقد لمحها وهي مقبلة نحوه دون أن

يمعن النظر في وجهها وما أن تخطته حتى التفت إليها ليتفحصها من الخلف وتساءل في نفسه كيف غابت عن باله تلك العانس القصيرة، استغرب لما تحاشاها معظم الرجال أبسبب قصر قامتها يا تُرى؟

أم لأسباب أخرى أم هو النصيب من أغفل الأعين عنها، ولكن وجهها لا يشوبه شيء...قال في نفسه،، كانت شديدة البياض والحمرة ملفوفة وكأنها يقطينة، كان لحمها طري يدل عليه أخمص قدميها، كان بالفعل يفكر وكأنه يريد شراء بقرة أو عنز، فقط ليتذوق لحمها الطري ويغرس منخاره فيها ويمتص منها رحيق الشباب، أخذ يقنع نفسه بتبرا شيئًا فشيئًا حتى أمتلأ قلبه بالأمل وفكر أنه لو طلبها من سليمان لن يرده خائبًا وعزم أمره عليها.... رجع إلى البيت في ذلك اليوم وهو يفتح عينيه بشدة وكأنه يريد توسيعهما أكثر مما هما عليه واستعان بذلك بفتح فمه أيضًا، وكان يملأ صدره بالهواء قدر المستطاع لكي يخفي صوت دقات قلبه التي تسارعت وقد جف العرق من جسمه، وأخذ يهيئ نفسه وينتقي الكلمات التي سيقولها لعائشة عندما يخبرها بأنه مقدم على الزواج من امرأة أخرى.....وجاءت اللحظة الحاسمة، دفع نفسه دفعًا إلى غرفتها ورأها جالسة فوق صندوق حاجياتها المُغطى بفراش رقيق وهي تمشط شعرها الذي أبيض شيبًا وأحمر من جراء الحناء وبقى فيه قليل من السواد وقد تلاشى معظمه بفعل الزمن ولم يتبقى منه إلا القليل فكانت عندما تظفره يصبح أقصر من ذيل فأر، إقترب منها

وجلس بجوارها كعادته عندما يريد إخبارها بمصيبة ما كموت أحدهم أو ماشابه، ولكن من الذي مات هذه المرة؟

تساءلت عائشة في نفسها! ولكنها لا تريد أن تسأله فتجاهلته وكأنها تريد تأجيل سماع الخبر، تجاهلته تمامًا كأنه باب الغرفة أو قط أليف مر بجانبها، ولكن فضولها كان أقوى من قدرتها على الصمت والتجاهل فأنفجرت بسؤالها:

- حاج ماذا بك؟

من الذي... لم تكمل سؤالها فقطع عليها حديثها..

- لم يمت أحد!

- ماذا بك إذن؟

وأخذ يستفزها بصمته مما زاد فضولها، فقال بهدوء في خطبة ورعة:

- أسمعيني جيدًا، الله غالب على أمره في كل شيء، في المرض وفي الموت وفي الكبر، وخاصة في الموت فعندما تأتي لحظة موت لأي إنسان لا يستطيع أحد إنقاذه منها، وكذا في كل شيء في هذه الدنيا، في النصيب والرزق وفي الزواج فكل إنسان يموت عندما يأتي أجله ولا يموت حتى يستوفي كامل رزقه، كل إنسان يأخذ ما قسمه الله له، هل صحيح ما أقول؟

- نعم ولا جديد فيما ذكرت! وراح عقل عائشة يفكرة بسرعة رهيبة من الذي فارق الحياة من أخوتها؟

هل هو أخوها مصباح أم أختها سليمة؟

فهذه المقدمة توحي بموت أحدهم دون أدنى شك! وسمحت لبعض الفزع أن يظهر على وجهها!!

– أين ذهبت بخيالك بعيدًا، لا تفزعي لم يمت أحد، صدقًا لم يمت أحد فأريحي عقلك من التفكير كل ما في الأمر أن لي نصيبًا في الزواج من امرأة أخرى، وهم بالنهوض بعدما نال غايته وألقى ما في جعبته على رأسها....

– هاأنذا قد أخبرتكِ، أفضل من أن تسمعي الخبر من أحد أخر!

عندما وصل إلى باب البيت مغادرًا سمع صرخة مدوية بدايتها ووووه ليلليلليليليه، أختلط صراخ عائشة بزغاريدها وأخذ لسانها يلف ألف لفة في الثانية مصدرًا صوتًا يفزع أكثر مما يفرح على عادته، صوت يوقظ الميت من قبره كما يقولون، وراحت تولول وتنتف ما بقى من شعرها المتلاشي، أخذت تلطم بيديها على وجهها وهي تقول:

هذا ما كان ينقصني، تخريف أخر العمر(ووووه عليا ووووه)، أخذت تغنى ببُكاءها وتطيل، فرجع إليها وقد استشاط غضبا وصرخ في وجهها، أصمتي عليك اللعنة يا صاحبة الفضائح، ليتها تكون هذه أخر صيحة تصيحينها في عمرك.....دعى عليها باللعن وشتمها بأقسى ما تكون الشتيمة....

– تصيحين وكأنك ابنة عشرين عامًا، أصص، اسكتي... ليتك تموتين قبل أن تغرب الشمس....

خرج مسرعًا وهو يلوح بطرف عباءته على كتفه في غضب شديد واستنكار لردة فعلها الغير متوقعة أبدًا فكثيرًا ما ظن في نفسه إنها لن تكترث به وبزواجه، فمنذ أن كبر أولادهما وهما يعيشان في بيت واحد وكأنهما يقضيان فترة عقوبة في سجن ما، كانت العلاقة التي تربطهما وكأنهما مجبران عليها..

بعد موجة من الصياح الذي تطاير في الهواء هرع إليهم الجيران وقد اختلط عليهم الأمر بين من يقول أنها زغاريد وبين من يقول أنه صياح ومن قال أنها زغاريد ظن أن بشير قد استعاد عافيته ومن قال أنه صياح ظن أنه قد مات واستراح من عناءه واستراح أهله من همه أيضًا، والحقيقة أنهم سمعوا زغاريد وصياح فتعالت الضربات على باب البيت فأسرعت مريم إلى الباب تداركًا للفضيحة فأخبرت بعض العجائز اللاتي كن يقفن عند الباب أن أمها رأت ثعبانًا كبيرًا و كان ذلك هوسبب الصياح ولكنهن لم يصدقنها فدخلن عنوة يدفعهن فضولهن...

عندما خرج الحاج (إمحمد) من بيته غاضبًا كانت وجهته غير معروفه إلى أن ساقته قدماه إلى بيت نسيبه مصباح وعندما وجد نفسه قريبًا من البيت فكر أن يطرق الحديد وهو ساخن وأن يخبره بالمرة، طرق الباب عدة طرقات قوية وكان الباب نصف

مغلق فرأى ابنه عمر واقفًا وراء البيت وهو يمج دخان سيجارة كان طولها واضح أمام قصره فصاح في هلع:

– ماذا تفعل أيها الشيطان، ودفع الباب بقدمه بقوة ودخل، ألقى عمر السيجارة من يده فأقترب منه أبيه وردد سؤاله:

– ماذا كنت تفعل الآن؟

– لم أفعل شيئا!

– لقد رأيتك الآن تدخن، هل كنت تدخن؟

– لا لا، أقسم بالله العظيم لم أكن أدخن، أقسم (بسيدي معمر) لم أفعل ذلك أبدًا، فقط كنت ألوك عودًا في فمي!

– أقترب، أفتح فمك، تنفس أفتح فمك أيها الحيوان!! كان عمر يتنفس بسحب الهواء إلى داخل رئتيه، لم يستطع الحاج (إمحمد) أن يميز رائحة التبغ لأنه كان يدخن هو أيضًا، لكنه رأه بأم عينه، تمنى أن تكذب عينه ويصدق ولده، فقال له هات يدك وقربها إلى أنفه وأستنشقها بقوة فاخترقت رائحة التبغ أنفه، كانت خليط بين رائحة التبغ ورائحة أوراق الليمون....

– أيها الكاذب الملعون، وصفعه صفعة قوية على وجهه حتى سقط أرضًا وأخذ يرفسه بقدميه وينعته بأقسى العبارات، خرجت الضاوية وأخواتها على أثر صيحات عمر وسألن الحاج (إمحمد) ماذا به...

– لقد كان يدخن هذا الشيطان الرجيم، أين أبوكم وأين أمكم؟

أجابت الضاوية:

– أبي منذ الصباح لم يرجع وأمي في بيت جدي حسن!

– لهذا السبب كان هذا الحيوان يأتي إلى هنا، فلا رقيب ولا حسيب هنا، كان يمرح ويدخن دون أن يبالي بأحد أو يبالي به أحد، عندما يرجع أبوك أخبريه أني أريده في أمر مهم، أخبريه أنه يجب عليه أن يأتي الي الليلة.

خرج الحاج (إمحمد) مسرعًا وقد زاده غضبه عنادًا على عناده وتوجه إلى بيت الفقيه سليمان ودخل معه إلى المضافة وبعد كأس الشاي الثانية أخبره بطلبه بالتقرب إليه بالزواج من أخته تبره.. تعجب الفقيه سليمان من طلبه هذا وهو في هذه الظروف ولكنه رحب بالفكرة وطرب لها فؤاده فلقد كانت المرأة العانس عبئًا ثقيلًا على قلوب ذويها وكأنهم يؤون فضيحة في بيتهم، حتى ولو تقدم إليها من هو أكبر من الحاج (إمحمد) فلن يرده خائبًا، كان الحاج (إمحمد) قد أزاح عبئ ثقيل عن قلبه مجرد أن فاتح الفقيه سليمان في هذا الأمر فلم يبقى إلا التنفيد فأخبره أنه بعد شهر رمضان سيقوم بإنهاء كل شيء....

ودع الفقيه ضيفه مرحبًا به في أي وقت...

مع السلامة أهلًا بك في أي وقت...

كان الحاج (إمحمد) قد اعتصر قلبه ألمًا عندما رأى ابنه الصغير عمر في ذلك الموقف وتحسر حسرة شديدة لأنه أحب

أولاده إلى قلبه، كان أذكاهم وأجملهم، وها هو قارب عامه العاشر وبدأت معالم الرجولة تظهر عليه مبكرًا فقد خشن صوته وبدأ الشعر يظهر في وجهه، ولكن هل هذه هي البداية،؟

تساءل في نفسه!! وأخذ يلوم نفسه على التفريط الواضح في تربيته لأنه أدرك أن الذكاء لابد وأن تكون له ضريبة كبيرة، أن يكون لك ولدًا ذكي تلك نعمة كبيرة والحفاظ عليها يتطلب جهدا كبيرًا وعناية فائقة، وإلا فالنعمة تنقلب إلى نقمة، لم يشق (إمحمد) في تربية أولاده بشير وعبد الله ومريم لأنهم كانوا أولادًا عاديين تربوا مثلهم مثل كل الاطفال الأخرين، أما عبد الله فقد كان البله واضحًا عليه منذ الصغر وذلك أمر الله وذاك نصيبه من العقل، وكان الحاج (إمحمد) يعتبر عمر تعويضًا عن أبناءه الثلاثة وبالأخص عبد الله فما فقده من ذكاء وفطنة قد أخذهما عمر، وكان يعتقد أن الله يأخذ شيئًا ويعطي مكانه شيئًا أخر وكان يعتقد أيضًا أن عمر سوف يكون خارقًا ليس فقط بين أخوته فحسب بل بين أقرانه والأكبر منه سنًا في الحي كله، ولكن ما راءه من حالته وبدايته بالتدخين في هذه السن المبكرة أصابه بخيبة أمل كبيرة وكانت صفعة عمر له في قلبه أشد وطأة من صفعته على وجهه...

عاد الحاج (إمحمد) إلى بيته مثقلا بالأهوال من يومه الحافل بالأحداث يجر أذيال خيبته وراءه كما يجر طرف عباءته وأحس بثقل قدميه وفضل أن يصلي العصر في بيته فوجد سحابة

من الكآبة تغطي البيت بأكمله فزاده ذلك غمًا على غم وتذكر أنه لم يسقط في جوفه شيئًا منذ الصباح فقد كان فطوره وغداءه السجائر فقط ولكنه لم يشعر بالجوع أبدًا، نادى على ابنته مريم فجاءت إليه مسرعة فسألها عن أمها، أين أمك؟

– منذ غادرت أنت وهي تبكي وسط غرفتها!

دعيها تبكي حتى الصباح، سوف تتعب من البكاء وتتوقف لوحدها!

– هل صحيح أنك ستتزوج من امرأة أخرى؟

– نعم هل لديك مانع أنت أيضًا، أذهبي وأحضري لي كأس من الشاي بسرعة ولا تتكلمي في هذا الموضوع ابدًا!!

مدد جسده على فراشه الرقيق وشعر بضعف شديد وأحس بأن قوته تتهاوى من جسده بسرعة شديدة، وأبيضت عيناه وغارت، أحس بأن الدم بدأ يتخثر في عروقه وانقسم جسمه إلى جزء بارد وأخر ساخن، وكأن نصفه البارد قد أستقبل جيشًا من النمل على متنه، وتقطعت أنفاسه فجأة.. أحدث ذلك الإنقطاع المفاجئ في أنفاسه تأثيرًا صاعقًا عليه وشعر بخوف شديد وبقى ساكنًا لا يتحرك ولم يحاول أن يتحرك خشية أن يحاول فلا يستطيع إلى أن جاءت مريم وهي تحمل كأس الشاي وهم بالنهوض ولكنه لم يستطع من المرة الأولى وحاول مرة أخرى فقام بجهد جبار وبمساعدة ابنته مريم ولم يعر أي اهتمام لهذا التباطؤ وظن أنه مجرد تعب وإرهاق لا غير، سالته مريم:

ما بك يا أبي؟

وعندما أراد أن يرد عليها أحس بلسانه ثقيل وكأنه من حديد، لا شيء مجرد تعب فقط، فقام مسرعًا وكأنه يريد أن يسابق المرض، ولكنه كان يمشي مثل سلحفاة وأخذ يحاول أن يفك عقدة قدميه بثنيهما ومدهمًا عدة مرات إلى أن أرتختا بعض الشيء ودخل إلى بيت الخلاء ونزع ثيابه وسكب فوق رأسه وجسمه بعض الماء البارد وأحس ببعض الإنتعاش ولكن خطواته كانت أبطأ من ذي قبل وحاول ألا يفكر في هذا الأمر أبدًا وكأنه يريد تأجيل كل شيء إلى ما بعد زواجه، حتى أن يمرض فذلك غير مقبول عنده قبل الزواج، فكر أنه لو مرض لن يجد من يعتني به ابدًا، ولكنه إذا تزوج ومرض بعد الزواج فإن العروس الجديدة ستجد نفسها أمام الأمر الواقع عندها لن يكون لها خيار أخر إلا خدمته والاعتناء به، وقبيل صلاة المغرب بقليل خرج مسرعًا إلى المسجد ولم تكن صلاة الجماعة هي غايته فقد كان يريد أن يحدث الفقيه سليمان قبل ولوجه إلى الصلاة وقبل أن يعتكف في خلوته لتحفيظ القرآن للصبية، فلم يعد هذا الأمر يحتمل التأجيل أبدًا، لم يبق على شهر رمضان سوى أسبوعين وفكر، بل وقرر أيضًا أن يتزوج قبل دخول شهر رمضان فلم يكن يريد أن يدخل عليه هذا الشهر الفضيل وهو في حالة غم وهم، عندما وصل إلى المسجد رأي الفقيه سليمان وهو يهم بالدخول إلى باحة الوضوء فتنفس الصعداء وأقترب منه وجلس إلى جانبه أمام صنابير المياه المُعدة للوضوء وقال في لهفة شديدة وهو يفرك يديه بالماء،

– الحمد لله أني لحقت بك قبل دخولك إلى المسجد، أريدك في أمر مهم جدًا

– خيرًا إن شاء الله؟

– اسمع أيها الفقيه فكرت أنه من الأفضل أن أستقبل شهر رمضان وأنا متزوج!

– ماهذا التغيير المفاجئ؟

– فكرت أن خير البر عاجله!

– أنت على حق خير البر عاجله، متى تريد أن يتم ذلك؟

– من الأفضل أن يكون بعد ثلاثة أو أربعة أيام كحد أقصى!

– على بركة الله، لك ما أردت!

بعد الفراغ من الصلاة مكث الحاج (إمحمد) في المسجد وأخذ المصحف وراح يتلو بعض سور القرآن الكريم إلى أن أُذن لصلاة العشاء فعاد إلى بيته وهو يشعر ببعض الراحة التي كانت غائبة عنه منذ وقت طويل، عندما وصل إلى البيت أحس بجوع شديد وشهية للأكل وكانت عائشة وسط غرفتها الواقعة في أخر البيت تأكل ذاتها بذاتها وتحترق بنيران غيظها وغيرتها وكان بجوارها أخوها مصباح يهدئ من روعها ويؤكد لها أن من حق الرجل أن يتزوج متى شاء وممن شاء، أنه شرع الله ولا يجوز لأحد أن يعترض على ما أحل الله وكانت زوجته فاطمة قد جاءت معه وكانت هي أيضًا تحث عائشة على الصبر والرضوخ للأمر الواقع

وكانت الشماتة تملوء عينيها وقلبها، وعندما دخل الحاج (إمحمد) إلى الغرفة وقف مصباح وقال له:

لا شك أنه جنون أخر العمر! أمازال في مقدورك فعل ذلك، كان يجدر بك أن تكون أكثر تعقلا وأكثر حكمة، وغادر الغرفة وخرج من البيت مسرعًا عازمًا على الذهاب إلى أحد أصدقاءه الذين كان يشرب معه الخمر ظنًا منه أن كأسين من النبيذ كفيلان بأن ينسياه (إمحمد) وعائشة ومشاكل هذه الدنيا بأسرها، وفي منتصف الطريق التقى بعبد الله فقال له بعد ساعة أو ساعتين أو مثل ما تريد عليك أن ترافق زوجتى إلى البيت فأنا لن أبيت في البيت هذه الليلة سأهرب من مشاكل أبيك وأمك ومن وجه زوجة خالك المقيت، هز عبد الله رأسه موافقًا وتابع طريقه وعقله يخلو من أي تفكير وعندما وصل إلى البيت خرج الشيطان الملعون من رأسه ووقف حائلًا بينه وبين دخوله، وسوس له في أذنه، إلى أين أنت ذاهب أيها الغبي؟

إنها فرصة لا تعوض، هيا عد أدراجك إلى بيت خالك، هيا أذهب إلى حبيبة قلبك، أنها الآن وحدها تتمرغ على فراشها ساخنة كعادتها، وصور له عقله أنها لازالت ترتدي ذلك الفستان الوردي وأطرافه مبللة بالماء، هيا أذهب فخالك لن يبيت في بيته هذه الليلة وزوجة خالك كما ترى هنا في بيتكم، هيا ستجد حبيبتك الضاوية والبيت خالٍ لك ولها، هيا ستفعل ما تريد، أجاب

صوت معدته، لكني جائع، ثم أن أخواتها الصغيرات معها الآن في البيت، إنها ليست وحدها، رد عليه شيطان رأسه، أخواتها الصغيرات لن يكن حائلًا بينك وبينها، ثم لابد وأنهن نمن الآن، هيا أذهب أيها المغفل، هيا عد أدرجك فالوقت يمضي، أن رأسك لا يحوى أي عقل، أنك مثال للغباء دون شك، ثم من المؤكد أنك ستجد ما لذ وطاب هناك، هيا هيا وس وس وس، أذهب أذهب أيها الأحمق....

غير عبد الله وجهته إلى بيت خاله وأخذ يسرع في مشيته، يلهث مثل الكلب المسعور ويسبقه شوقه، كان يمشي على ثلاث أرجل، لم يحاول أبدًا ولم يخطر بباله أن يبعد الشيطان من رأسه، كان يجري ويدفعه شيطانه من الخلف، عندما وصل إلى بيت خاله دفع الباب الذي كان نصف مغلق كعادته، دخل إلى البيت بخطوات غير مسموعة وكأنه يمشي في الهواء إلى أن وصل إلى وسط البيت ورأها مستلقية على بطنها ناعمة وشبه عارية وكأنها أفعى قد أبدلت ثوبها للتو، اقترب منها فلم تحرك ساكنا ولم تبالي به وكأنه قط أو حيوان أليف أخر، كانت تلاعب أختها الصغرى، فاقترب منها أكثر فنظرت إلى عينيه وكانتا محمرتين وكأنهما عيني شيطان فشعرت بخوف طفيف، فأقترب أكثر وكان كل جسمه ينبض على دقات قلبه المتسارعة في وتيرة واحدة، حاول أن يبعد عن نفسه الارتباك وأن يبعد عنها الخوف الذي أشتمه كحيوان بري، فقال لها:

– لقد طرقت الباب طرفات عديدة ولكنك لم تسمعيها هل أصبتِ بالصمم! لقد جئت هنا بحثًا عن عمر ألم يأت إلى هنا؟

أخذ الطفلة الصغيرة من بين يديها وتظاهر أنه يلاعبها بإلقاءها إلى الأعلى وإلتقاطها مرة أخرى، (هب لا هب لا بس بس بس أوب أوب أوب!) زال خوف الضاوية نهائيا فسألته

– هل صحيح أن أباك يريد الزواج مرة أخرى؟

لا يخفى شيء في هذه القرية، الخبر يصل وينتشر قبل حتى أن يقال هههه، أمازال بمقدوره أن يفعل ذلك أووه أنه بلاشك جنون أخر العمر، يقولون أن الرجل عندما يشيخ يعود مراهقًا من جديد مرة أخرى! يا إلهي ولكن هل يستطيع من في سنه أن يفعل هذا وقد أرتخى كل جسمه وترهل، وضحكت ضحة مجلجلة كعادتها، الزواج يريد شابًا فتيًا قويًا يعرف ماذا يفعل في ليلة الدخلة، قالت هذه الكلمات وهي تهز حاجبيها وتمرر لسانها على شفتيها، وأتبعت بضحكة توحي بالرذيلة هههههه، وخلال هذه الضحكة حدثها شيطانها بأن تعبث به قليلا كعادتها في كل مرة فقالت له ولا تزال الطفلة بين ذراعيه:

– دعك من هذه الطفلة الشرسة، إنها شرسة حقًا، لقد آذتني بأظافرها الحادة تعال وأنظر، فوضع الطفلة من يديه وأقترب منها فأخذت بطرف فستانها من فوق كتفها الأيمن وأسقطته بيدها اليسرى فأشاحت عن بياض رهيب يكاد يضئ وخطوط حمراء

دقيقة جدًا لا تكاد تُرى، لقد أذتني هنا أيضًا، أنظر ورفعت فستانها عن أسفل فخديها إلى أعلى، إلى أن برزت بطنها، كانت مصقولة وكأنها مرآة، هههه، لقد أذتني في أماكن أخرى لا أستطيع أن أريك أياها، فأنا خجلة منك كثيرًا هههههه....

كانت هذه أخر كلمات قالتها وأخر كلمات سمعها عبد الله، كانت تلك الحركات هي الضربة القاضية على إنسانية عبد الله فهو لم يستفز بهذه الطريقة من قبل، استفزته حتى حولته إلى وحش كاسر فأنقض عليها كالضبع عندما ينقض على فريسته، أطبق بيده اليسرى على فمها ونزع بيده الأخرى بقايا فستانها الرقيق وكل ما كانت ترتديه بقوة شيطانية شرسة وفعل بها ما فعل مؤكدًا لها بأنه بكامل رجولته وفحولته وأنه يستطيع أن يفعل أكثر من مجرد النظر إلى مفاتنها الرهيبة، لقد أفقدها عذريتها في لمح البصر وأحدث فيها جرح لن يندمل أبدًا ولو مر الف زمن مع هذا الزمن، كانت وكأنها لم تدرك ما الذي حدث بالضبط وعندما أرتفع صوت الطفلة بجانبهما بالبكاء الحاد، عندما أشتد صراخها بشكل مريع أخرجهما مما كانا فيه من الغيبات، تراجع بما بقي عنده من إنسانية خوفًا من أن تموت الطفلة من الصراخ دون أن يقضي شهوته، ورأى بعض قطرات من الدم تسيل على فخديها، خطوط حمراء داكنة فأدرك أنه فعل بها أكثر من فض بكارتها وأنه أحدث فيها شرخا يعلم الله وحده كيف سيندمل، كانت الخطوط الحمراء الداكنة قد نقشت في عينيه وكأنها وهج الشمس في

الظهيرة ولم تبرح عينيه أبدًا ولم يغادر صوت صراخ الطفلة أذنيه أبدًا...

عندما نهضت تلملم أشلاء ملابسها تمنت أن يكون ذلك حلم مرعب أو كابوس مقيت، ولكنه كان واضحًا وضوح الشمس في يومٍ من أيام الصيف.. فلا مجال للشك...

سكبت كل ما في جفونها من دموع وهي تلطم خديها وتولول وتلوم نفسها وتلعن شيطانها الذي أوقعها في هذا الفخ العميق، كان الشيطان في زاوية البيت يقهقه بصوت غير مسموع ويقول لها...

كل ما في الأمر أني أشرت عليك أن تعبثي به قليلا فلا تلوميني ولومي نفسك، وراح يقهقه عاليا، أقترب منها فأنقلب باكيا حزينًا يلومها على ما فعلت ويطبق عليها أنفاسها وأشار عليها، بأن لاخيار أمامك وما من شيء سوف يجدي نفعًا بعد الآن، أنك أضعت نفسك وأهدرت شرفك وقد أصبحت الآن كالحيوان الأجرب، لن يقترب منك أحد، لن يجرؤ أحد على التفكير فيك بعد الآن، مع كل هذا الجمال، يالك من جميلة مسكينة، إن قلبي يتفطر لأجلك ودموعي تسيل عليك، ياصاحبة الوجه الساحر، صحيح أن وجهك ساحر وجميل ولكن ذلك لم يعد ينفع الآن، لقد أصبحت كالبئر المهجور، كالوادي السحيق الذي لا قرار له ولا حياة فيه، لقد اصبحت الآن لعنة على أخواتك الصغيرات، لن يلتفت إليهن

آحد بسببك، أوه ه ه كم أنت قاسية، ولكنك تعصرين قلبي ألمًا، هيا أنهضي وأغسلي وجهك الجميل ولملمي شعرك المتناثر كأمواج البجر، أنظري إلى وجهك في المرآة، لقد أصبحت جيفة، لكنك جيفة جميلة، أوه أن رائحتك كريهة، أوه ه يالأمك المسكينة ستموت كمدًا عندما تعرف ما فعلت، وأبوك ذلك السكير العربيد، صحيح أنه سكير ولكنه على الأقل كان يحظى ببعض الاحترام، لقد فقد الآن كل الاحترام، بسببك، هيا لا داعي لإضاعة الوقت، أغتسلي بسرعة وهنالك حبل جميل بانتظار رقبتك الجميلة، عليك أن تخفي كل معالم فضيحتك، بسرعة فالوقت يمضي...أغتسلت الضاوية بسرعة البرق ولملمت شعرها المتناثر الناعم الذي انطلق من رباطه كفرس جموح، إرتدت فستانًا أبيض يستر كل جسمها وذهبت إلى وراء البيت حيث كانت هناك شجرة زيتون قديمة تربض منتصبة وكأنها شبح صامت وكان يتدلى منها حبل بني كريه المنظر، كان أرجوحة فيما مضى، كان قد لُف حول الغصن كأنه أفعوان يتربص بكل من يقترب، أخذت تزيل ثناياه بهدوء شديد وكأنها كانت تأمل بأن تستيقظ وتجد نفسها كانت في كابوس مرعب تحمد الله على الاستيقاظ منه ولكن هيهات،، ليت الزمان يعود إلى الوراء، كان الحبل عالٍ بعض الشيء التفتت تبحث عن شيء تصعد عليه ويساعدها في الوصول إليه بشكل أفضل فرأت ذلك الدلو الذي طالما رافقها في غسيلها فذهبت إليه في خطى ثابتة وأحضرته إلى تحت الشجرة، صعدت عليه وأرخت الحبل

بعض الشيء، زادت في طولها بالوقوف على رؤوس أصابع قدميها وجعلت تُحِكيهُ وتلفه حول عنقها وهي ترتعد من الخوف والبرد، لقد أشعرها الحبل الغليظ ببعض الدفء، وعندما أحكمت الوثاق شدت طرف الحبل بيديها وسحبته نحوها لكي تتأكد من قدرته على حملها، توقفت للحظات وتساءلت في نفسها كيف أنها لم تستيقظ إلى هذه اللحظة، وجاءت لحظة الموت ودفعت بحسمها من أعلى الدلو وكأنها متيقنة من أنها الآن في هذه اللحظة بالضبط سوف تستيقظ من هذا الكابوس المريع، أندفع الدلو من تحت قدميها وسقط، تدلت من طرف الحبل وهي مازالت تأمل بأن تستيقظ، تدلت منه وكأنها مازالت تقف على رؤوس أصابع قدميها وباتت جثة هامدة لا تحرك ساكنًا، لقد فاز الشيطان في أخر الأمر، ولكن أخر الأمر لم يحن بعد.....

كل من عرف الضاوية عن قرب ما كان ليتوقع لها هذه النهاية المأساوية، لقد كانت سمعتها سيئة وكانت سيرتها ومغامراتها أشهر من مغامرات عنترة بن شداد فارس بني عبس مع عبلة، فقد أغوت أكثر من نصف شباب القرية دون أن تسمح لأحد بالأقتراب منها، كانت تتلذذ بعذابات الأخرين وتقتات عليها وتستعين بها لترسيخ ثقتها بنفسها وبجمالها وكان كل الشباب يدعون وصلا بها وهي لا تؤكد ولا تنفي علاقتها بأحدًا، كانت تلوكها الأفواه في كل مناسبة، كانت أشهر من الفقيه سليمان شيخ المسجد، كان كل من بلغ سن الرشد ونضجت مخيلته من الصبية يراها في خياله دون ثياب،

كانت رمزًا للحب والجنس لكبار القوم وصغارهم، كانت ثقتها بقدراتها تفوق الخيال وكثيرًا ما تتسابق الفتيات لصحبتها وذلك بسبب جرأتها ومعرفتها بخفايا الرجال، كانت بمثابة المعلمة لهذه الأمور، كانت تقنع كل من يتهمها بالسوء بأنه افتراء و نتاج حسد انبته جمالها في القلوب وحقد عليها وكان الجميع يقتنع ببساطة وعن طيب خاطر، كانت كل العجائز في القرية يتمنين أن يخطبنها لأولادهن لجمالها وخفة ظلها ونشاطها في حمل كل أعباء المنزل، كانت تمثل حلم كل شاب وكل العجائز يتسابقن للظفر بها، ما كان أحدًا ليتوقع نهاية كهذه النهاية لما كانت تتميز به من شخصية جبارة لا تعرف الندم والخجل ولا تأنيب الضمير، وكأنها خلقت بلا ضمير، كانت تتباهى بأنها تستطيع أن تغوي الشيطان نفسه وأنها تعرف متى تضع حدًا لكل شيء وأنها سوف تتزوج ممن تريد وفي أي وقت تريد، ربما هي نفسها لم تتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد فقد كانت تعرف جيدًا متى تضع حدًا لكل هذا العبث، ولكن ما حدث أخيرًا أزاح اللثام عن واقع مفجع وقلب الموازين رأسًا على عقب.

***

مر على تلك الحادثة قرابة الثلاثة أشهر ومنذ تلك الليلة المشؤومة لم يعرف أين أختفى عبد الله ولم يُعرف له طريق وكأن الأرض انشقت وأبتلعته، أدرك الأهالي بأن له صلة بما

حدث للضاوية فلم تمت عذراء لأن العجوز القابلة التي غسلتها وكفنتها أفشت السر لبعض العجائز رغم توسلات أمها فاطمة ولكن الأقدار أبت إلا أن تبقى الضاوية سيرة تتناقلها الألسن حتى بعد انتحارها، رحل مصباح بعائلته هربًا من الفضيحة وماتت عائشة كمدًا من هول المصيبة التي فعلها ولدها وإزداد المرض على الحاج (إمحمد) ولزم البيت وكان قد ألغى مشروع زواجه من تبره لأن وقع المصيبة زاد في عمره عشرات السنين وأصبحت قدماه غير قادرتين على حمله وتلعثم لسانه وذهب نصف بصره، أصبحت مريم تقوم على خدمة أخيها بشير وأبيها المقعد حديثا وكان عمر قد اعتزل الطفولة وألزم نفسه بالقرب من أخته يُعينها على بلواها وكان عمهم الحاج منصور والفقيه سليمان قد تعاهدا على رعاية ما تبقى من هذه العائلة التي أصابتها اللعنة الكبرى فتراهما يومًا بعد يوم يأتيان إلى بيت الحاج (إمحمد) يعينانه على مرضه ويدعوانه للصبر ويبعدان عنه الهم بالمواساة والرحمة ويُذكرانه بأن كل ما حدث كان مقدرًا من الله في كتاب القدر و أن على المؤمن أن يؤمن بقضاء الله وقدره، عليه بالصبر وعدم الجزع وإلا فإن الأجر سوف ينقص...

ومرت الايام خالية من الاحداث حتى جاء الفقيه سليمان إلى بيت الحاج (إمحمد) وهو يزف إليهم بشارة وصول الشيخ علي صاحب السر الأكبرإلى (ترهونة) قادمًا من (الزنتان) للتجارة وأخبره بأنه ربما يعينهم على معالجة بشير وفك شر السحر عنه

ويطرد تلك الروح الشريرة التي سكنت جسده منذ وقت طويل، زف الفقيه سليمان هذا الخبر إلى الحاج (إمحمد) مؤكدًا قدرات الشيخ الغير مسبوقة في هذا المجال وأنه لا يستعصي عليه أي جن أزرق كان أو أحمر، أخبره أنه قد وصل للتو وأنه سيأخذ قسطًا من الراحة عنده في البيت وثم بعد ذلك سيأتي هنا لرؤية بشير وأنه متأكد أن الله سيجعل شفاءه على يديه المباركتين وما أن هبط الليل حتى عاد الفقيه سليمان إلى بيت الحاج (إمحمد) برفقة الشيخ علي، كان يمشي وراءه بفائق الاحترام ويُرشده إلى الطريق بنعته إلى اليمين تارة وإلى الشمال تارة أخرى حتى وصلا إلى البيت فقرع الفقيه سليمان الباب بطرقات قوية بكل حماس هرع عمر إلى الباب وعندما فتحه هاله ما رأي من وقار الشيخ علي وهيبته فعاد مسرعًا إلى داخل البيت دون أن يدري فنهره الفقيه سليمان بشدة:

– تعال إلى هنا بسرعة، أفتح لنا المضافة، سلم على سيدك الشيخ علي!

سلم عمر على الشيخ علي في خوف شديد وارتباك وطبع قبلة على يده المباركة وفتح المضافة ودخل مسرعًا مرة أخرى ليخبر مريم.

دخل الشيخان إلى المضافة وجلسا في صمت ينتظران، فطال الانتظار حتى نهض الفقيه مغاضبًا وصاح على عمر بأعلى صوته فعاد إليه عمر، فأرسله إلى بيت عمه منصور....

– أخبر عمك منصور بأن يأتي إلى هنا بسرعة، هيا بسرعة البرق، وما هي إلا لحظات حتى دخل الحاج منصور إلى المضافة وسلم على الضيفين وطبع بدوره قبلة بحرارة على يد الشيخ علي مرحبًا به بكل ما أُوتي من حماس، نهض الفقيه سليمان وأخذ بطرف عباءته وأرجعه فوق كتفه في شيء من الحزم وقال لمنصور

– هيا يا حاج منصور ليس لدى الشيخ وقت، يريد أن يرى بشير!

– حسنًا حسنًا، خرج الحاج منصور مسرعًا من المضافة وأخبر مريم أن تنزوي في أخر غرفة وأن تعد الشاي للضيوف بسرعة، ثم عاد إلى المضافة وأخرجهما منها وأدخلهما إلى غرفة بشير فجلس الشيخ علي عند رأس بشير يتفحصه والفقيه سليمان والحاج منصور يرقبانه في صمت، وفي الغرفة المقابلة كان الحاج (إمحمد) يصيح بصوت غير مفهوم مناديًا على أخيه منصور فذهب إليه وانحنى فوق رأسه وأوقفه على قدميه وأسنده عليه وساقه إلى حيث يرقد بشير ببطء شديد، وعند دخولهما سمعا الشيخ علي يقول للفقيه سليمان،

– لقد تأخرتم يا فقيه سليمان، لقد تمكن منه هذا الملعون، وراح يقوم ببعض الطقوس وأخذ يمسح على رأس بشير ويقول كلامًا غير مفهوم وكأنه يتحدث بلغة أخرى غير معروفة، وفجأة انقض على بشير وأمسكه من عنقه بكلتا يديه حتى انتفخ وجهه

وانقطع عنه الهواء وبرزت عيناه إلى الأمام وخرج لسانه من فمه، بدأ الشيخ علي بالصياح..

– من أنت أيها الملعون؟

ما أسمك؟

أنطق! من سلطك على هذا البدن؟

لم يسمع الشيخ علي أي رد على أسئلته فتراجع وأرخى قبضة يديه من عنقه وراح ينظر إليه دون أن يقول شيئًا لبرهة من الوقت، تدخل الفقيه سليمان كاسرًا هذا الصمت الذي طال،

– خيرًا إن شاء الله!

– نسأل الله أن يكون خيرًا، هذا يا فقيه سليمان جني من الطراز الخطير لا يجدي معه هذا الأسلوب القديم، علي أن أجد طريقة أخرى أو أجد مفتاح هذه الطبقة من هذه المخلوقات، رجاءًا دعوني وحدي أنا والمريض!

تراجع الجميع وخرجوا من الغرفة وأعاد الحاج منصور أخاه إلى فراشه ومكث الشيخ علي مع بشير حتى صباح اليوم التالي، ومكث الفقيه سليمان في غرفة الحاج (إمحمد)، كان لايستطيع النوم أو الراحة إلا في بيته وفكر بالرجوع إلى بيته ولكنه عاب على نفسه ذلك التفكير فليس من اللائق أن يترك الشيخ علي وحده ويعود أدراجه، كانت كل هذه الأحداث تمر على مرأى ومسمع من عمر وكان خياله الرحب لا يتوقف عن التخيل والتفكير حتى أنه

رأى هذا الجني في خياله ورسم له صورة غير كريهة وغير مخيفة فلم يكن قلبه الصغير يعرف الكره والخوف بعد، فقد جعل لهذا المخلوق في خياله رأس مربع الشكل وعينين كبيرتين مدورتين وأذن واحدة فوق رأسه وفم مبتسم ويدين طويلتين جدًا يطال بهما كل ما يريد في رشاقة غريبة...

أخذ يفكر كيف يمكن للشيخ علي أن يطردهذا المخلوق من جسد أخيه؟

هل سيطلب منه ذلك بأسلوب حسن؟

هل سيرجوا منه ذلك رجاءًا؟

أوسيخدعه بخدعة ما؟

كان عقله الصغير يغلي كالقِدر فوق نارٍ حامية حتى أنه حُرم من النوم جراء هذا التفكير المضني لليالٍ عديدة، ليس ذلك فحسب، كان ما يمنع عنه النوم أيضًا تفكيره في أخيه عبدالله، فمنذ تلك الليلة وهو يشعر بشيء ثقيل داخل جوفه، كانت مشاعره قد أختلطت عليه فلم يعد يدري أيشعر بالشوق لأخيه أو البغض والكره، ولطالما تساءل في خاطره ما الذي دفع عبد الله لفعل تلك المصيبة، كان عليه أن يطلب منها ذلك بكل سهولة وهي تعطيه ما يريد عن طيب خاطر، كانت الحياة بسيطة جدًا في خياله، كان لا يدرك معنى الشهوة والغريزة أو الكره والبغض، لم تكن الغريزة بالأمر المهم في خياله، ليست بالأهمية ليفعل عبد الله مافعله

ويتسبب في قتل الضاوية بهذه الطريقة المفجعة، لم يكن مقتنعًا بأن الناس يحتاجون للغش والكذب والسرقة أو فعل الفاحشة، كان يعيش حياة خاصة به في عقله، في جنة خاصة صنعها في خياله، كان كثيرًا ما يتساءل في نفسه هل صحيح أن الله سيعذب البشر بالنار يوم القيامة؟

كان عمر يغش ويكذب ويسرق أحيانًا، كان يسرق السجائر من أخيه بشير قبل أن يقعده المرض، كان مافرضه على الناس من قوانين في خياله لا ينطبق عليه في واقعه، وكأنه مستثنى من هذه الأمور، لم يدرك حقيقة مشاعره نحو أخيه عبد الله، أهو يشتاق إليه أم أنه يريده موجودًا هنا لكي يهتم بشؤن البيت وهولاء المرضى أنصاف الأحياء ويتفرغ هو لخياله ولهوه، أكان يبغض عبد الله لفعلته الشنعاء أم لأنه أبعد عنه ابنة خاله هنية التي كان يعشقها، لقد أدرك أنه يعشقها بعد رحيلهم، لقد رحلت وأخذت قلبه معها، كان يحبها حبا طفوليًا عذريًا ملئ بالحلم والخيال، في الحقيقة لم يكن عذريًا جدًا فالشيطان لم يسمح لحب في سن الطفولة بأن يكون عذريًا جدًا، كان قلبه يعتصر ألمًا لفراق بيت خاله وبالأخص هنية، كان يُلقي باللائمة على أخيه عبد الله، كان حانقًا عليه أشد الحنق، كان بيت خاله مصباح بالنسبة إليه جنة فوق الأرض مليئة بالحب واللعب وعدم التقيد بالأوامر، كان يفعل كل ما يحلوا له دون حسيب أورقيب، كان أشبه بجروٍ صغير يرتع ويمرح في مراعٍ خضراء فسيحة تملؤها الزهور مع قطيع من الماعز، كانت

هنية عنزته المفضلة، لكن عبد الله حرمه من كل ذلك ونغص عليه حياته ورحل، وجعل منه مسئولًا عن فتاة شابة ومريضين هما أقرب للموت منهما للحياة ومنذ ذلك الرحيل المشؤوم لم يعد التدخين لهو ولعب أطفال، بل أصبح يخفف الألم ويهون على المرء مصائبه، أصبح قلبه الآن يعرف الآلام جيدًا وبات الحزن يعرف رائحته جيدًا ويطارده في كل وقت وحين....

كان الشيخ علي قد عاد إلى بيت الحاج (إمحمد) عدة مرات لرؤية بشير، حتى أنه لم يعد بحاجة إلى الفقيه سليمان أو الحاج منصور حيث أخرج بشير من غرفته المظلمة في أخر البيت إلى المضافة وذلك ليكون دخول الشيخ علي وخروجه أسهل من دخوله إلى الغرفة داخل البيت وكان حضور عمر يكفي لاستقباله فقد زالت عنه الرهبة والخوف من الشيخ علي حتى أنه أصبح يلازمه ويساعده في علاج أخيه دون أن يبالي أو يلقي أي اهتمام لما سمعه ذات مرة من أحد الصبية بأن الجني لا يخرج من جسد أحدهم إلا إذا وجد جسدًا قريبًا منه يدخل إليه، كان شعورٌ بالطمأنينة والثقة يلازمانه حين يكون مع الشيخ علي، كان يعتقد أنه في مأمن من كل شيء وأن الشيخ علي قادرًا على كل شيء في هذه الأمور، كانت عيناه الغائرتان ونظراته توحيان بأنهما تخترقان الأشياء والجدران وبمعرفة بما وراء الأشياء، فمن ذا الذي لم يسمع عن الشيخ علي الذي يمشي على الماء ويطير في السماء ويخترق الأجسام الصلبة ويسابق الريح وتهابه جميع المخلوقات الغير مرئية...

في إحدى جلسات العلاج تلك دخل الشيخ علي المضافة برفقة عمر وكان الجو في ذلك اليوم شديد البرودة، كان البرد يتغلغل في العظام ويقرص كالنحل، كان أول طلب من الشيخ علي تلك الليلة أن يأتيه عمر بموقدٍ صغير فظن عمر أن الشيخ ربما يحتاجه لوضع بعض البخور فيه ولم يخطر بباله أنه قد ارتعدت أوصاله من البرد حتى وهو يلف عباءته الغليظة حول كل جسمه وظهر منها وجهه وكفيه فقط، انطلق عمر مسرعًا إلى مريم فأخبرها بأن تعد لهم الموقد بسرعة وأن تعد لهم الشاي الثقيل الذي يعدل مسار الدماغ، لقد أصبح عمر الآن رجل البيت، بات يأمر بالشاي وإعداد الطعام للضيوف وأمور أخرى كثيرة، كان ذلك يشعر مريم ببعض الطمأنينة والفخر، عندما دخل بالموقد إلى المضافة وجد الشيخ علي يتحدث مع بشير فرقص قلبه طربًا وسر سرورًا شديدًا وكاد أن يسقط الموقد من يديه على الأرض وسأل بلهفة شديدة

– هل استعاد وعيه، يا الله، الحمد لله! فنهره الشيخ علي بحزم وبكلمة واحدة،

اسسسسسس أسكت!

تابع الشيخ علي حديثه مع بشير هو ممسك بكلتا يديه على عنقه

– هل أنت مسلم؟

فأجاب لسان بشير بصوت جهوري كريه، لا لا لست مسلمًا!

تعجب عمر من هذه الإجابة ولم يفهم شيئًا ولم يكن عقله قد أسعفه ليفهم ما يحدث، تابع الشيخ علي حواره مع ذلك المخلوق على لسان بشير،

– من أي ديانة أنت؟

ومن أي الأراضي أنت؟

– أنا من عباد النار من بلاد فارس، أنا من عباد النار، أعبد إله الشر وأمقت إله الخير..!

– لعنك الله ما من إله إلا الله الواحد القهار ألا تعلم ذلك أيها الكافر؟

– من سلطك على هذا الجسد وماذا تريد مقابل الخروج منه؟

سكت ذلك الصوت قليلا فأحكم الشيخ علي الخناق عليه بقوة شديدة وردد عليه السؤال،

– من سلطك على هذا الجسد؟

هيا تكلم، هيا،!

سلطني مليكي ملك ملوك الجن ببلاد فارس وذلك بطلب من ملك ملوك الجن ببلاد العرب وبطلبٍ من (فجرة) ساحرة الجبل وذلك بناءًا على طلب من مزنة زوجة عم هذا الإنسي، ولن يكون خروجي إلا بكسر عنقه، فلن أتركه إلا بكسر عنقه أو بالموت، هذا ما أتفقنا عليه!!

– عليك أيها الجني أن تعلم أنه لا إله إلا الله وعليك بالإيمان به وبالدخول إلى الإسلام وتكف عن إيذاء بني البشر وإلا أحرقتك!!

هنا.... وجم عمر وارتعدت أوصاله خوفًا ورحل الدم من وجهه ووجد الرعب مكانًا في قلبه، تسمر في مكانه كالصنم وأنقلب الفرح غمًا وأحس بشيء دافئ يسري بين ساقيه، تبول في سرواله ودنس مكان وقوفه في المضافة وشعر أن الليل قدأصبح أكثر ظلمة والسقف أكثر قربًا وتقطعت أنفاسه وضاقت عليه المضافة بما رحبت فقد أدرك مع من كان الشيخ علي يتحدث، تغيرت تلك الصورة التي كان قد رسمها لهذا الجني في خياله حتى أصبح أكثر بشاعة بعينين حادتين حمراوتين وشعر كثيف وفم عبوس ملئ بأسنان كالخناجر ويدين من نار تلهب بألسنتها كل ما تقع عليه، تلاشت الطمائنينة وذهبت الثقة بالشيخ علي مذهب الريح، حاول التراجع ببطء شديد ولكنه لم يفلح، كانت صورة الجني تتوالى في مخيلته كالبركان الغاضب، استحوذ عليه شعورٌ بالرعب فالتفت إليه الشيخ علي وكان قد أنهى حواره مع الجني وقال له:

– أسمع يا عمر، لم تعد طفلًا صغيرًا أنت الآن رجل هذا البيت فلا داعي لكل هذا الخوف، إياك ثم إياك أن تحدث أحدًا بما سمعت الآن، ماسمعته الآن سر كبير لا يجوز الإفصاح عنه مهما حدث، لا يجوز الإفصاح عنه حتى لا يصيبك مكروه، مهما حدث

ها، هأنذا قد حذرتك فقد أعذر من أنذر، إياك ثم إياك، لا تجعلني أظن أنني أخطأت في اعتمادي عليك، فأنا لست متأكدًا من كلام هذا الجني عندما ذكر زوجة عمك مزنة لأن هذه المخلوقات تكذب مثلما تتنفس، يكذبون ليقتل بعضنا بعضًا بحجة أن أحدهم عمل سحر للأخر، إياك أن تعيد ما سمعت الآن حتى على مسامعك بينك وبين نفسك.

أجاب عمر بالموافقة بهز رأسه دون أن ينطق بكلمة واحدة وخرج من المضافة مسرعًا إلى داخل البيت حيث تلقته مريم عندما رأت الفزع على وجهه أمسكت برأسه بكلتا يديها وانهالت عليه بالأسئلة، ها ما الذي أصابك؟

مابال وجهك؟

هل حدث شيء جديد لبشير؟

هل رحل الشيخ علي؟

ملأ صدره بالهواء وأطبق على عينيه مانعًا دموعه أن تنساب وتفضحه، شعر برغبة شديدة في البكاء و لمعت عينيه بشيء من الدمع لكنه تمالك نفسه وفتح عينيه إلى أقصى مايكون كي يمنع سقوط دموعه، إحساسه بمسؤليته وشعوره بأنه أصبح يعتمد عليه هو ما منعه من البكاء، تحطم صوته وهو يحاول الكلام فتظاهر بالسعال وأخبر مريم أنه لا شيء جديد إنما البرد القارص ما فعل به هذا، دخل إلى غرفته وتمدد على فراشه وغطى نفسه بغطاءه

الثقيل وراح يسكب ما في جفونه من دموع في خوف بينه وبين نفسه وراح يسحب ماء أنفه متظاهرًا بالزكام ولم يكن يبالي بأن يرحل الشيخ علي وحده من المضافة أو يبيت فيها وقرر في نفسه بأنه لن يبرح مكانه ولو انطبقت السماء على الأرض لأحساسه بأنه في مأمن طالما أنه في فراشه وتحت غطاءه الثقيل، وبالفعل عاد الشيخ علي وحيدًا إلى بيت مضيفه الفقيه سليمان حيث أعد له متكأ في مضافته الكبيرة التي كان لها باب يفصلها عن باقي البيت.

كان الشيخ علي قد جاء إلى (ترهونة) قادما من (الزنتان) وذلك لغرض التجارة، كانت تجارته تقتصر على ما يجمعه من صوف الماشية في موسم الجز ولم يكن يعرف مكانا أخر ينزل فيه سوى عند صديقه القديم الفقيه سليمان، ولما كان الفقيه يشعر بالتقصير لعدم قدرته على مداواة بشير كان أول حديث خاض فيه مع الشيخ علي عند وصوله هو مرض بشير الذي لم يعرف له دواء، أخبره أن الله قد أتى به وسخره لأجل هذه العائلة وبالأخص من أجل الحاج (إمحمد) الذي فقد العافية وفقد ولدين وهما على قيد الحياة، فما من شيء أصعب من فقدان الأولاد، إن كان ذلك بالموت فلا اعتراض على أمر الله، ولكن بالمرض والضياع كما حدث مع ولدي الحاج (إمحمد) فهذا أمر شديد الصعوبة عليه، أخبره، أن هذا كله من عند الله ولكن كما يقولون الميت ينسى ولكن بالمرض والضياع يكون الألم أشد وأعظم، أخبره متهكمًا

أن بشير منذ عام مضى وهو على هذه الحال المضنية لم ينفعه دواء ولا حضرات...

كان الفقيه سليمان يخشى على مكانته الاجتماعية التي كان يحظى بها في (ترهونة)، كان يلزم نفسه إلزامًا بكل شيء، لاتفوته صغيرة ولا كبيرة، كان وجيهًا من الوجهاء، فكما يقول المثل القديم (من كان يريد أن يصبح وتدًا عليه أن يحتمل الضرب فوق رأسه) لهذا كان متلهفًا لإيجاد حل لهذه المعضلة الصعبة.

كانت سمعة الشيخ علي تسبقه إلى أي مكان يذهب إليه فقد كان الناس يتناقلون سيرته العطرة على ألسنتهم من مكان إلى أخر وزادوا عليها كثيرًا من الأساطير ونسبوا إليه كثيرًا من الأمور الخارقة والكرامات التي تظهر على يديه من حين إلى أخر وكانوا يطلقون عليه لقب صاحب السر، زعموا أنه يشفي من كل مرض ويمشي على الماء ويطير في السماء ولا يعجز عن شيء أبدًا، حتى في موسم الحج زعموا أنه يصل إلى الأراضي المقدسة في لمح البصر وأنه يدرك ما تفكر فيه دون أن تتكلم ويتحكم في ألف جني أزرق، لقد كان كائنًا أسطوري في خيال وأحاديث الناس، الكل يعرف ذلك، ربما كان كذلك..

لقد أدرك من خلال خبرته الطويلة في مجال معالجة السحر وأخراج الجنون من الأجساد بأن حالة بشير مستعصية وتحتاج إلى وقت طويل جدًا، وهو متلهف إلى العودة إلى (الزنتان) فقد مكث لوقت أطول مما كان مقررًا، مكث من أجل الفقيه سليمان

ومن أجل عمر ولكن المقام طال ولم يعد لديه ما يفعله فقد فعل أقصى ما في وسعه، وفي صباح تلك الليلة التي رجع فيها وحيدًا من بيت الحاج (إمحمد) أخبر الفقيه سليمان بأنه عازم على العودة إلى (الزنتان) فلديه الكثير من الأعمال يجب عليه أن يقوم بها، كان الوقت مبكرًا عندما أخبره بذلك، كان بعد خروجهم من المسجد وفراغهم من صلاة الصبح.

تفاجأ الفقيه سليمان من كلام الشيخ علي وعزمه على الرجوع إلى أراضيه دون أن يبث في حالة بشير فسأله دون تفكير!

– وماذا عن بشير؟

– بشير له رب كريم يتولاه هو القادرعلى شفاءه، لم يعد لي حيلة فقد فعلت كل ما في وسعي ولكن الله لم يأذن له بالشفاء، على كل حال لن أطيل المقام في (الزنتان) سأرجع خلال شهر على الأكثر إن شاء الله...

تجهم وجه الفقيه سليمان وقال في امتعاض

– حسنًا مادامت تلك رغبتك يا شيخ علي، والله كنا نتمنى أن تبقى معنا أطول مدة فأنه لا يمل منك ومن علمك، أسأل الله أن يوصلك سالمًا إلى أهلك وكما قلت ربنا كريم يتولى عباده برحمته.

كان الفقيه سليمان مجهد التفكير في هذا الأمر و يريد أن يجد حلًا لهذه المشكلة المتفاقمة لكي لا يقال عنه أنه وقف

مكتوف اليدين أمام هذا السحر العظيم، فما فائدة الشيوخ والفقهاء إذن، فما فائدته وهو العالم بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، خشي أن تكون فتنة ويفقد الناس الثقة بالعلاج الشرعي ويلجأون إلى السحرة أنفسهم لكي يكشفوا عنهم هذا البلاء، من سيصد عدوان تلك الأرواح الشريرة التي سلطها بنو البشر على بعضهم البعض انتقامًا وكفرًا، ولكن ما أخبره به الشيخ علي قد هون عليه كثيرًا فلن يلومه أحد بعد الآن فها هو الشيخ علي بقدارته الخارقة يقف عاجزًا هو الأخر أمام هذا السحر، لقد كان يريد حلا لهذه المشكلة لأنه كان يحب صديقه الحاج (إمحمد) وفجعه ما حصل له، ضاع له ولدان أحدهما نصف حي والأخر الله وحده يعلم أين يكون، بالأضافة إلى مايعاني منه الحاج (إمحمد) من مرض، فمن سيعول ما تبقى من هذه العائلة، كل ذلك كان يشعره بالمسؤلية كرجل يعرف الرحمة ويدعو إليها في خُطُبه كل صلاة جمعة، كان يعرف جيدًا أن الحاج منصورلا يُعتمد عليه كليًا في هذه الشدائد وإن كانت تربطه صلة الدم والأخوة بالحاج (إمحمد)، لأنه كان طوع أمر زوجته تسيره كيفما شاءت، كانت مزنة تحكم اللجام جيدًا على زوجها وهو يسمع ويطيع وكأنه أحد البغال الأفغانية، فقد كان بغلًا ذا قلب رحيم ولكن لا حيلة له..... ولكن ليس على هواه وهوى زوجته، يجب عليه أن يفعل شيئًا ويعينني فأنا لا أستطيع فعل كل شيء وحدي.....هذا ما قاله الفقيه سليمان بينه وبين نفسه ذات مرة.....

في صباح ذلك اليوم ذهب الشيخ علي إلى بيت الحاج (إمحمد) قبيل رحيله بقليل، أدخله عمر إلى المضافة فرأى بشير وهو على حاله، مكث لبعض الوقت وأحتسى كوبًا من الشاي ثم أخبر عمر بأنه سوف يرحل بعد قليل وأوصاه أن يحفظ السر،

– سأرحل بعد قليل عائدًا إلى (الزنتان)، كما أوصيتك لا تخبر أحدًا بما سمعت البارحة وإلا.... قاطعه عمر:

– أطمئن يا شيخ لن أخبرأحدًا، ولكن هل سترحل وتتركني وحدي أعاني؟

وما أن سمع الشيخ علي هذه الكلمات من عمر حتى أعتصر قلبه رقة وألمًا وكاد يبكي ولكنه تمالك نفسه،

– أعدك أيها الصبي الشجاع بأني سأعود من أجلك ومن أجل أخيك بشير، هذا وعد وعليك أن تكون أكثر رجولة وأكثر شجاعة فأنت الآن رجل هذا البيت.

– ولكنني خائف جدًا من هذا الذي يسكن جسد أخي بشير! ضحك الشيخ علي محاولا أن يبعد عن عمر خوفه،

– كيف تخاف منه؟

ألم تشاهدني كيف كنت أحدثه وألعنه؟

– أنت شيخ والعفاريت تخاف الشيوخ ولكنني صبي صغير فما حيلتي؟

– وما يمنعك أن تكون شيخًا مثلي؟

– وكيف ذلك؟

– أسمع يا عمر عليك بالصلاة وقراءة القرآن في كل وقت، هل تحفظ شيئًا من القرآن؟

– لا، ربما بعض السور القصيرة!

– ألم تتعلم القرآن في كُتاب الفقيه سليمان؟

– ذهبت إليه منذ زمن مضى، أخذني أبي إلى هناك عدة مرات ولكنني ضقت به ذرعًا فهجرته، وابتسم ابتسامة الشقاوة، ووضع يده فوق رأسه وأتبع قائلًا، لقد ضربني أبي كثيرًا لعدم ذهابي إلى الكُتاب ولكن دون جدوى!

– لا بأس أيها الصبي فما زال في الوقت متسع لفعل ذلك، فأنت طفل ذكي وعليك أن تتعلم كيف تصبر على نفسك وتتغلب على شيطانك، إنه يلازمك في كل وقت صباحًا ومساءًا، إنه يجري في دمك، عليك أن تحفظ آية الكرسي فإنها تحفظ من كل شياطين الأرض ولو كانوا مجتمعين، فلن يضرك شيء ما دمت مع الله، اسمع يا عمر، من يكون مع الله في كل وقت يكون الله معه في كل وقت، فلن يضرك شيء لا شياطين الجن ولا شياطين الإنس، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما قد كتبه الله عليك وأعلم أيضًا أنك إذا طلبت من الله شيئًا فلن يردك خائبًا ما دمت معه تمتثل لأوامره وتنتهي عن كل ما نهى عنه، وفي الأخرة يكون جزاءك الجنة بعد الموت، أتريد أن تدخل إلى الجنة ففيها كل ما تشتهي نفسك ومالم يخطر على قلب بشر، هل فهمت الآن؟

عندما تكون مع الله تصبح ملكًا في الدنيا وملكًا في الأخرة، تذكر ذلك يا عمر وأطلب من الله أن يشفي أخاك بشير فهو الوحيد القادر على ذلك وأطلب منه أن يهديك إلى سواء السبيل وأدعوا لأبيك أيضًا، هل فهمت ما أقصد؟

أجاب عمر بالموافقة بهز رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل،، وأضاف الشيخ علي، أما أنا فكما وعدتك لن أطيل غيابي سأرجع قريبًا إن شاء الله فلا تخش شيئًا..هم الشيخ بالنهوض وودع عمر بحضن دافئ ووعد نفسه في نفسه بأن يعود من أجل هذا الصبي وعائلته فقد أحبه كأحد أبناءه،،

– أوصل سلامي لأبيك وأعتني بنفسك جيدًا!

خرج الشيخ علي تعصف في رأسه الأفكار، أذ كيف لصبي صغير في مثل هذه السن أن يحتمل كل هذا، قال في ذات نفسه، الحمد لله إننا مؤمنون بقضاء الله وقدره، وراح يفكر في أدق التفاصيل، من سيعول هذه العائلة ومن سيعتني بهذا الصبي ومن ومن... إلى أن أوصله تفكيره نهاية الأمر إلى أن الله موجود فقال في صوت غير مسموع.... لا يضل ربي ولا ينسى، أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، استودعته الله فهو أرحم بعباده من بعضهم لبعض، ورحل عائدًا إلى (الزنتان) وفي نفسه عزم على العودة إن أراد الله ذلك، فقد كانت إرادة هولاء الناس أمثال الشيخ علي مقترنة بإرادة الله فلا شيء يحدث خارج إرادته...

تفاقم العزم في نفس عمر كتفاقم الحلم في عقول المجانين، كتفاقم البلاء عندما يحضر، أستجمع قواه الخائرة وأبعد خوفه عن رأسه واستعاد ثقته بنفسه وبالشيخ علي، فقد وقعت كلماته في نفسه موقع السحر، وأحس بنفسه أكثر طولًا وأكبر حجمًا وأنه لا شيء سيقف في طريقه أبدًا، كل شيء أصبح سهل المنال، فقط قليل من الصبر والعزم ويكون كل شيء على ما يرام، فقط قليل من الوقت ليكبر ويصبح كل شيء في مكانه، امتلأ عقله بالحلم وقلبه بالأمل ورأى نفسه في أحلام يقظته شيخًا وقورًا يحظى باحترام شديد والكل يلهث لينال بركته ويقبل يديه المباركتين، حتى أنه رأى نفسه يطير في السماء ويمشي على الماء مثل الشيخ علي، كان قد طعن في السن وشاخ في حلمه ولكن بوجه ناعم لم ينبت الشعر فيه بعد، لقد كان كل من عرفهم في الواقع لم يكبروا ولم يشيخوا في حلمه...

كلهم أنذال سوف يقبلون يديه هاتين، سوف يعرفون من هوالشيخ عمر، سيستعيد سمعة عائلتهم التي مسح بها أخوه عبد الله الوحل وينسيهم كل ماكان، لم يكن وحده في الحلم، هنية كانت معه، لم تكبر هي أيضًا، كانت بوجه طفولي برئ ووشم أسفل وجهها الساحر الجميل وحناء منقوشة في يديها ورجليها وعينين قد أشبعهما الكحل، كانت تفخر به زوجًا بين كل النساء وتخاف عليه من حسدهن وأعينهن، لم يحلم بالجنة أبدًا ولم يخطر بباله أن يحلم بها، لقد جمع عزمه على التقوى والسير في الطريق المستقيم

وكان أول شيء فعله أنه عاد إلى كُتّاب الفقيه سليمان عازمًا على حفظ القرآن كاملا ومن هنا سيبدأ بتحقيق كل شيء.....

بعد مُضي قرابة عام على مرض بشير كانت مزنة قد شفت غليلها وأنتقمت لكرامة ابنتها منه، وكانت سلمى قد كرهت ذلك اليوم الذي جاءت فيه تبكي إلى أمها وندمت عليه ندمًا شديدًا، فقد كانت تعرف ما فعلته أمها، ولكن مزنة شفت غليلها دون أي إحساس بالندم أو بتأنيب الضمير وكانت تشعر أنها فعلت ما كان يجب عليها أن تفعل أو ربما أكثر من ذلك لو استطاعت دون اعتراف بأنها من كانت وراء ذلك الشر وكثيرًا ماعللت أمام سلمى ما حصل لبشير بأنه انتقام الله منه وأن الله يمهل ولا يهمل، كانت تخشى أن تضعف أمام ندمها لسوء عملها لأنها تدرك جيدًا أن الندم ولوم النفس إذا تسلل إلى قلبها فأنه يسري مسرى السم في الجسد ويحيله إلى خراب، تجاهلت بكل قسوة ما فعلت وكأن شيئًا لم يحدث وكانت تتردد على بيت سلفها الحاج (إمحمد) بكل وقاحة وبرودة أعصاب تتظاهر بأنها تعين مريم على بلواها في أبيها وأخيها، وكان عمر منذ أن سمع بشير يتحدث تلك الليلة المخيفة وعرف أمر مزنة وتورطها في هذا الأمر، كان يراها وكأنها شيطان يمشي على قدمين ودون أي رغبة منه في فضح أمرها فقد وعد الشيخ علي ولن يخلف وعده أو ربما كان خائفًا من عواقب إفشاءه للسر، تجاهل أمرها وكانت علاقته بها طبيعية جدًا، كان يجيد النفاق جيدًا وكانت هي بدورها تتودد إليه وإلى مريم بشدة

حتى أنها فكرت بينها وبين نفسها في أن تكثر من الحب والود وكأنما تريد أن تبرهن إلى مريم أنها لم تكن سيئة في يوم من الأيام بذلك القدر التي كانت عائشة تتهمها به وإنها من معدن طيب يظهر عند الشدائد وما الخصومات التي كانت بينها وبين أمها عائشة إلا من تدبيرعائشة نفسها، حاولت أن توحي إلى مريم أن مافات قد مات، ولكنها في حقيقة الأمر كانت تريد أن تنتقم من عائشة حتى وهي ميتة تحت التراب، كانت دائمًا ما تخبرها بأنها مثل أمها رحمها الله وسامحها وتقسم عليها بالله إن احتاجت لشيء فلعليها ألا تتردد في طلبه منها، ولكن ما كان يدورمن أفكار في عقل مزنة قد كان واضحًا بالنسبة لمريم، فما تفكر فيه امرأة فلابد وأن تدركه امرأة أخرى لأن عقولهن متشابهة في التفكير والتدبير فلا تستطيع امرأة أن تستهين بعقل امرأة أخرى، كانت لديهن قدرة عجيبة على تطبيع الأمور وضبط النفس، كانت مريم تلاقي ذاك الود والحب بشيء من البرود واللامبالاة..

كان الحاج منصور قد تعجب من أمر زوجته مزنة والتغيير المفاجئ الذي طرأ عليها ولكنه سعيدًا بهذا التغيير وما أصبح عليه الوضع الجديد وأصبح أكثر مرونة وأطوع من ذي قبل، لقد ظن أن الله قد هداها من جراء هذه المصائب والفضائح التي توالت على بيت أخيه (إمحمد) وأنها اتعظت وأصبحت أكثر نضوجًا وتعقلًا، حتى أنه فكر في أن يحدثها في خطبة مريم لابنه خليفة وكان مبرره أن بيت أخيه صار يحتاج إلى رجل يُعتمد عليه ليعينهم

على مصائب الدهر، وما هي إلا أيام قليلة مضت حتى أخبر الحاج منصور زوجته برغبته تلك وكان يأمل ذلك بشدة لشعوره بالتقصير مع أخيه (إمحمد) وتوقع أن تكون زوجته تشاطره نفس الفكرة وتؤيده في قراره الحكيم، ولكن رد مزنة على هذه الفكرة كان قاسيًا ومفجعًا وينم عن قسوة قلب كالحجر وشك كبير في أن تكون هذه المرأة من فصيلة البشر، عندما جاء يخبرها بذلك ردت عليه.....

– عليك أن تبول فوق رأسي للقيام بذلك، لن يحدث هذا وأنا على قيد الحياة لن تدخل بيتي تلك الأفعى بنت الأفعى، سأمنع ذلك حتى ولو كان هذا أخر عمل أقوم به في حياتي، ولو انطبقت السماء على الأرض، هل سمعت يومًا أن سلحفاة قد حكت ظهرها؟

لن يحدث هذا حتى لو حكت السلحفاة ظهرها وأدمته، قالت مزنة هذا الكلام على مرأى ومسمع من ابنتها سلمى، لم تدرك سلمى إن كان هذا الكلام قد أعجبها أم لم يعجبها، قد إختلطت مشاعرها وتشتت أفكارها ولم تدرك ما كان يجب عليها أن تشعر به، وما عليها أن تفعل، أن تساند أمها في عنادها أم تقف بجانب أبيها المخذول ولو لمرة واحدة في حياتها، لم تكن تعرف ماذا تفعل بالضبط ولكنها فوجئت بعناد أمها وقدرتها العجيبة في الاستمرار في الشر إلى هذا الحد، تفاجأت وأعجبتها القوة والهمة

العالية لدى أمها وتمنت في قرارة نفسها لو كانت قوية مثلها، لو أخذت قليلًا من طباعها القوية لما كان الحب أتعبها وأضناها وأحالها إلى مخلوقة خنوعة ذليلة كما هو حالها الآن،، على الاقل كانت تغلبت على نفسها ومشاعرها وعاشت حياة هانئة كباقي البشر، ولكنها في أخر الأمر أثرت حياتها كما أعتادتها، أدركت أنه ما من لذة فوق هذه الأرض تضاهي لذة الحب ولو كان يجر العذاب ولو كان يحرق الفؤاد، حتى لو كان قاتلًا، كان حبها لبشير في ما مضى حب من كانت ترغب بالزواج وإنجاب الأولاد، حياة بسيطة لا تحتاج إلى كثيرمن الحلم، أما الآن فأن الأمور قد أختلفت، أصبح حبها يحوطه إحساس بالشفقة وشعورًا بالذنب وضمير يحترق ويمزق الفؤاد فيالها من مصيبة أوقعت نفسها فيها فقد اهترأ وجهها وذبلت عيناها وأصبحت أكثر بشاعة جراء ما كانت تعانيه من مشاعر مختلفة، أصبحت أكثر بشاعة حتى من تلك العجوز الأسطورية التي كان الأهالي يخيفون بها أطفالهم عند القيلولة قديمًا، ماكانت تسمى باللهجة الليبية (عزوز القايلة)..

خرج الحاج منصور من بيته في ذلك اليوم دون أن يتفوه بكلمة واحدة ولكن الدم كان يغلي في عروقه ورأسه مشتعل مثل البركان، تمامًا كما كان يغلي عندما كان شابًا، كان إحساسًا قديمًا متعبًا مُرهقًا ولكنه الآن بدا ممتعًا وبدأت تجول في خاطره أيام ذلك الزمان الممتع عندما كانت كلمته تعلو على كل الكلمات وكان الكل يسمع رأيه ويأخذ به، كان رجلًا بحق، وفكر أنه منذ أن

تزوج من تلك البلوة مزنة على حد تعبيره في نفسه أصبح كالبغل تقوده حيث تشاء وتفعل به ماتشاء دون أي احترام ودون أي تقدير، كان إحساسه بغليان دمه ممتعًا لأنه شعر بقدرته على تغيير أمور كثيرة كان يجب عليه أن يغيرها منذ وقت طويل، عاهد نفسه على ذلك وقال في ذات نفسه....

سنرى من سيبول على رأس الأخر أيتها الحقيرة... ساقته قدماه إلى بيت أخيه (إمحمد) فدفع الباب بقدمه ودخل دون رغبة في الاستئذان فعائشة قد ماتت ولم يعد في البيت من يحتاج للاستئذان لأجله، دخل إلى المضافة ورأى عمر جالسًا عند رأس أخيه بشير يرقيه ويتلوعنده بعض سور القرآن، ألقى عليهما السلام ومضى إلى داخل البيت ودخل الغرفة حيث كان أخوه (إمحمد) قابعًا دون حراك يصارع المرض يومًا بعد يوم، ألقى عليه السلام وجلس بجانبه وأخذ يسأل عن حاله بصوت مرتفع وكأنه يحاول بث النشاط فيه وكان الحاج (إمحمد) يرد برفع سبابته إلى السماء قاصدًا بذلك الحمد لله دون كلام وكان الحاج منصور متحمسًا لإخباره عن رغبته بزاوج ابنه خليفة من مريم وأحس أن هذا الخبر سوف يفرحه ويريحه ويُشعره بالطمأنينة ولكنه فكر بأن يتريث قليلا..... ربما كان خوفه من مزنة هو ما جعله يتريث..... ولكنه ما أن أدرك في نفسه أنه ربما يكون خوفه من مزنة ما جعله يتريث حتى زاده ذلك عنادًا على عناده وتشجع وأفضى إلى أخيه ما جاء لأجله،

– يا حاج أسأل الله أن يشفيك قريبًا، ربما لا يزال الوقت مبكرًا على ما سأقول ولكن لم نرى أي تغيير في هذا الوضع، و لهذا فكرت في تزويج ابني خليفة، أنت تعرف كيف يكون الشباب في عجلة من أمرهم عندما يتعلق الأمر بالزواج، وراح يتكلم ويبسط الأمور ويشرح ولكن دون أن يعيره الحاج (إمحمد) أي انتباه وانشغل عنه بالتفكير فقد ظن أنه أدرك ما جاء لأجله منصور وقال في ذات نفسه، أوه ه ولابد أن زوجته هى من أرسلته ياله من أمعة، جاء يستأذن ليقيم عُرسًا لإبنه ونحن على هذه الحالة، اللعنة، على الرجال من أمثال هذا، ولكن لا بأس فالكل منشغل بهمه والكل يبحث عن مصالحه، أنه محق فهذه الحياة لن تتوقف بمرض أو بموت أحدهم، وبعد عودته من الحديث في أعماق نفسه سمع من أخيه أسم مريم فهز رأسه موحيًا لأخيه أن يعيد عليه ما كان يقول وتظاهر بأنه لم يسمع جيدًا، أستطرد الحاج منصور،

فكرت أن نلم شمل خليفة ومريم وأن تعقد قرانهم وتجعله كإبنك يعينك على بلاء هذه الدنيا، أي ببساطة وبصريح العبارة جئت الآن كي أطلب يد مريم لإبني خليفة فهو ابن عمها وهو أحق بها من غيره فانظر ماذا ترى.، أحس الحاج (إمحمد) بتأنيب الضمير لسوء ظنه بأخيه وأحس بغصة في قلبه وبكى بشدة، كانت هذه أول مرة يرى فيها منصور أخاه (إمحمد) يبكي منذ أن كانا طفلين في بيت واحد، بكى هو الأخر وفكر في نفسه إذ كيف لهذه الدنيا أن تفرق بين الأخ وأخيه وأن تجعل كل هذا الجفاء بينهما

وكيف ينشغل كلا منهما عن الأخر بزوجته وأبناءه ويصبحان كالأغراب وفكر أيضًا أن كل هذا الجفاء الذي كان في قلبه إنما كان سببه تلك الملعونة زوجته، أجل هي من كانت تكره أخاه وزوجته وأبناءه وتشعر إزاءهم بالغيرة والحسد ونقلت إليه كل هذا الكره وهذا الجفاء، قال في نفسه،، ولكن لابأس فإن الحساب سيطول معها وسأضع حدًا لكل هذا، فكر أن هنالك بعض النساء يثرن في نفس الرجل رغبة شديدة في ضربهن وتحطيم رؤسهن وحتى قتلهن شر قتلة.

خرج الحاج منصور من بيت أخيه متوجهًا إلى المسجد فقد أُذن لصلاة المغرب وعندما هم بالدخول إلى وسط المسجد أدركه الفقيه سليمان ممسكًا بيده اليسرى بكلتا يديه وألقى عليه السلام برحابة صدروأخبره أن ينتظره بعد الصلاة لأنه يريده في أمر مهم جدًا، وبعد الفراغ من الصلاة خرج الفقيه سليمان ورأى الحاج منصور في انتظاره في فناء المسجد وفي ملامح وجهه تساؤلٌ كبير فأقترب منه الفقيه وجعل يربت بيده اليمنى على كتفه ليشعره ببعض الطمائنينة وراح يسأله عن حاله وحال أخيه (إمحمد) ودعا له بالشفاء ولولده بشير ثم استطرد قائلًا

– بعد أسبوع أن شاء الله سأزوج ابنتي خدوجة وأريد منك أن تكون أحد الشاهدين على عقد قرانها والعاقبة لإبنتك سلمى إن شاء الله...

– أسأل الله ان يجعله زواجًا مباركًا وأن يتممه على خير..

– آمين... لكن ليس لهذا الأمر أريدك إنما لأمر أخر.

– خيرًا إن شاء الله؟

– ألا تريد تزويج ابنك خليفة؟

قد خطر في بالي أنه لن يجد زوجة تناسبه خيرًا من أبنة عمه مريم ونكون بذلك قد أزحنا حملًا ثقيلًا عن قلب الحاج (إمحمد)، وأنت تعرف جيدًا أنه لن يقترب أحدٌ من بيت أخيك بعد الفضيحة التي فعلها عبد الله بأبنة خاله الضاوية رحمها الله، لهذا رأيت أنه من الأنسب أن تقوم أنت بذلك، نظر إلى عينيه وأردف قائلًا، عليك أن تستشير عائلتك وتعجل في هذا الأمر....

عندما نظر الفقيه سليمان إلى عيني الحاج منصور تلك النظرة كان يقصد بها، عليك أن تكون رجلًا وأن تتم هذا الأمر حتى ولو رفضت زوجتك ذلك، أدرك الحاج منصورالمغزى من تلك النظرة وشعر بالسخط على مزنة وغضب منها غضبًا شديدًا دون أن يظهر ذلك في وجهه ولكنه ظهر على لسانه وأجاب بحزم:

– قبل أن أتي إلى المسجد كُنت عند أخي (إمحمد) وطلبت منه ذلك دون أن يعلم خليفة ولا حتى الجن الأزرق وأنا ماضٍ في ذلك إن شاء الله ولن تكون مريم لغيره فهو ابن عمها كما قلت ولن يجد خيرًا منها ولن تجد هي خيرًا منه....

تعجب الفقيه سليمان من حزم الحاج منصور وطربت أذناه لما سمع وأدرك أن منصور بدأ يسترد زمام الأمور من سطوة زوجته

ورأي في عينيه عزمه على إتمام هذا الزواج مهما كلفه الأمر فلم يعد الأمر مجرد زواج أو مساعدة أخيه ولكن الأمر أخذ بعدًا أبعد من ذلك بكثير فكرامته كرجل على المحك وهو الآن أمام هذا التحدي لاسترداد زمام الأمور كما كانت في السابق، فرجع في ذلك اليوم كالثور الهائج إلى بيته وعندما وصل إلى وسط البيت رأي خليفة جالسًا بجوار أمه فقال له بكل جرأءة:

– عليك أن تستعد فالأسبوع القادم سوف تعقد قرانك على ابنة عمك، وان كان لديك أي مانع فاخبرني به؟

– لا ليس لدي مانع ولكن أرى أنه من المبكر التفكير في هذا ألامر.....،

– ماذا؟

أنت ترى؟

ومنذ متى كنت ترى؟

ماقلته سوف ينفذ ولا أحد غيري يرى في هذا البيت، أما أنتم فعليكم بالطاعة فقط، هل فهمت؟

وقفت مزنة فجأة كالنافورة وقالت والله العظيم لن تدخل بيتي تلك الأفعى ولو انطبقت السماء على الأرض ولو بقيت هي أخر امرأة فوق هذه الارض،، ولم تكمل ما كان في جعبتها من كلام فانقض عليها الحاج منصور كالغول وأخذ يضربها ضربًا لو ضُرب لحيوان لنطق من شدته وأخذ يشتمها ويشتم سلالتها من حيث بدأت.....

-عندما أقول أمرًا عليك بالتنفيذ فقط أيتها الفاسدة، أيتها الكلبة، هل سمعتي؟

هل فهمتي؟

والتفت حوله فوجد ذلك العرجون القديم الذي بات صلبًا من جراء كنسه للبيت، وأخذ يضربها به ضربًا أحال كل جسمها مخططًا مثل الحمار الوحشي، وهي تقول والله فهمت ياحاج والله سمعت، والله لن يحدث إلا ماتريد وسوف يُنفذ خليفة كل ما تريد، أقسم لك بسيدي عبد السلام ما كان قصدي إلا أن أختار لخليفة زوجة تليق به، فكما يقولون عليك أن تختار أخوالًا لأبناءك قبل أن تختار أمهم، ولكن لك ماتريد فأنت صاحب الأمر هنا....

تنحى الحاج منصور جانبًا عن زوجته وكان يلهث من شدة ما فعل، لقد أحال وجهها الكريه إلى اللون الاحمر من كثرة مانزف من الدم، وجعل عينيها منتفختين زرقاوتين من أعلاهم ومن أسفلهم، لقد أحس بطعم الانتصار الذي كان غائبًا عنه منذ وقتٍ طويل وقرر في ذات نفسه أنه من الضروري أن يداوم على ضرب زوجته من حين لأخر وظن أنه العلاج الناجع لامرأة طويلة اللسان مثلها، ولكنه لم يدرك ما كانت تفكرفيه مزنة، فالشر الذي تحمله بين جنبيها أكبر من أن يُزال بالضرب حتى لوضربها كل يوم فقد قررت من أول صفعة تلقتها من زوجها أن تذهب إلى (فجرة) ساحرة الجبل وأن تجدد له السحر القديم، وفكرت أنه ربما يكون

مفعوله قد زال مع طول الزمن، قررت أن تذهب إلى (فجرة) وأن تحرق الدنيا بأكملها فوق رؤسهم أجمعين وأن تنتقم بطريقتها الخاصة فلا سلاح أخر تملكه سوى السحر والحقد، سوف تحرق الأخضر واليابس سوف تجعل مريم مثالًا للعانس الفاجرة التي تتوسل لكي يُفعل بها الفاحشة، سوف تجعل سيرتها على كل لسان وستجعل من زوجها مثالًا لأحسن بغل فوق هذه الأرض، سوف يعيش بقية حياته تحت قدميها كما كان في السابق، تحت قدميها، ترفسه عندما تريد وتشد اللجام متى تريد، قالت في ذات نفسها، سوف نرى يا كلب يا ابن الكلاب فالزمن بيننا إن لم أجعلك تركع عند قدمي هاتين، لن أكون جديرة بحمل أسمي، وبدأ الدم يغلي في عروقها وأخذ الحقد يتفاقم في نفسها وهي ترى استعداد ابنها خليفة وزوجها وهما يحضران لمراسم الزواج، وكيف أن سلمى أبنتها باركت هذا الزواج وأعتبرته تعويضًا عما فعلته أمها ببشير واستعدادًا لنسيان ما مضى والعيش بسلام، كانت سلمى على استعداد أن تتزوج هي أيضًا من بشير لو أراد وهو على هذه الحالة ولم تكن تمانع أن تبقى خادمة له طوال عمرها حتى ولو لم يعيشا كزوجين، فقط تريد أن تنظر إليه كل صباح فهذا يكفيها، لم تكن قادرة على حمل الأحقاد كل الوقت لأن ذلك كان مُتعبا ومهلكًا للنفس والبدن على حد سواء، كانت مزنة ترفض زواج مريم لأنها تعلم يقينا أنه لن يقدم أحد على الزواج منها بسبب فضيحة أخيها عبد الله وما فعله بالضاوية، تلك الفضيحة التي ستتناقلها الألسن

وتُروى جيلًا بعد جيل، فقد كان من الصعب أن ينسى الناس أي شائبة تشوب أي شخص إذا فُضح على رؤس الأشهاد، كان من عادة الناس أن يتناقلوا كل ماهو مشين وغض الطرف عن كل ماهو حسن، كانت السمعة هي المقياس في كل شيء، فما بالك بالزاوج الذي كان في تلك الأيام أمرًا مقدسًا وكانت النساء قرابين لهذا القداس، لقد كن يتحملن جرائر غيرهن من فضائح وجرائم وذنوب، لقد كان أي عمل مشين يقوم به أحد أفراد العائلة يعود باللعنة على العائلة بأكملها وخاصة النساء، لقد كانت مزنة على يقين أن مريم سوف تبقى عانسًا دون زواج طوال عمرها وكان ذلك ما يشفي غليلها ويطفئ نار الحسد في قلبها، فلن تبقى سلمى وحدها عانسًا، فمريم أيضًا ستبقى كذلك وهذا ما يهون عليها الأمر، لقد حاولت مزنة أن تزوج ابنتها بالسحر أكثر من مرة ولكن بشاعة سلمى كانت أقوى من أي سحر..

كان إصرار الحاج منصور على هذا الزواج قد أجج نار الحقد عند مزنة من جديد، وكاد أن يُفقدها صوابها، ولم يكن لديها الوقت الكافي لفعل ما توعدت به فلم يتبق على موعد الزفاف إلا يوم واحد فقط، فقد أجتمع الرجال من الأهالي والجيران في ذلك اليوم في المسجد بعد صلاة العصر وقام أحد الشيوخ بعقد قران خليفة على مريم وعقد قران خدوجة ابنة الفقيه على ابن عمها وقد تقرر الدخول بالعروسين ليلة الجمعة دون الإفراط في الفرح، كانت بعض النسوة يحاولن تزيين مريم وتجهيزها كعروس وكانت

هي بدورها تلعن حظها وتلعن اليوم الذي ولدت فيه، فلم يخطر ببالها يومًا أن تكون زوجة لخليفة، لم تكن تريد أحدًا بعينه ولكن ليس خليفة ذلك الخنوع الذي لا يعصي لأمه أمرًا، كانت تحلم بفارس مغوار يخرج لها من بعض الحكايات القديمة التي كانت الجدات ترويها فيما مضى، يحمل أخلاق الفارس الشجاع، بهي الطلعة طويل القامة كريم النفس طيب القلب ذو حنكةٍ في التعامل مع امرأة جميلة مثلها، لكن لم يخطر في بالها يوما أن تستيقظ من حلمها الجميل على كابوس أسمه خليفة، ويكون مبرر هذا الكابوس كلمة النصيب، كانت تلعن في نفسها حظها العاثر وتلعن عبدالله وتدعو عليه ألا يرى يوما سعيدًا في حياته إن كان حيًا وألا تنزل عليه رحمة من الله في قبره إن كان ميتًا، ولكن ليس لها في الأمر من حيلة فما يقرره الرجال هو ماسيحدث ولو أنها حاولت ولو مجرد المحاولة في التفكير في رفض هذا الأمر فلن يجبرها أحد، ولكن ربما ستكون تلك فضيحة أشد وطأة من فضيحة عبد الله إذ سيتناقل الناس سيرتها وكيف أنها رفضت الزواج وسيتقولون عليها الأقاويل ويتعاظم القول من لسان لأخر وربما في نهاية الأمر ستكون عاشقة لأحد ما أو ربما كانت تخفي سرًا يكون فضيحته عند ليلة الدخلة، فألسنة الناس لا ترحم أحدًا، رضخت للأمر الواقع وأنسلخت من أي إرادة وانساقت لقدرها وسلمت أمرها إلى الله، فربما يكون خيرًا، قالت في ذات نفسها، وفكرت إذ كيف للإنسان أن يطمع بكل الخير وبكل السعادة في هذه الدنيا، ولم تكن الدنيا

يومًا أخر المطاف، فربما كان نصيبها من السعادة وفي الحياة الهانئة لم يحن بعد، وربما لا يحين موعده في هذه الدنيا أبدًا، الصبر ولا شيء غير الصبر واستجماع العزم على الصبر، طعمه مر ولكن أجره عظيم، وربما كان في الدواء بعض المرارة...

في اليوم الذي تقرر فيه الدخول بالعروسين استيقظ الأهالي على صيحة مدوية في بيت الحاج (إمحمد)، كانت صيحة أكثر من امرأة تولول، فقد مات بشير، جاءته بعض العجائز تتفقدنه صباحًا فوجدنه جثة هامدة دون حراك ولم يكن الهواء يخرج من رئتيه وعيناه معلقة في سقف غرفته وكأنه مات من هول ما رأى أمامه في تلك اللحظة التي تسمرت فيها عيناه، انقلب ما يشبه العرس إلى نواح ولطم وشق للجيوب وصيحات بدايتها (وووووه) وأخرها تحدده كل امرأة على هواها، فزع إليهم الجيران وأنقلب العرس إلى عزاء وكأن القدر كان يتحدى مريم فعندما يأتي البلاء فإنه يأتي دفعة واحدة، كان عمرأكثر من صعق لهذا الموت المفاجئ كان يرجو ألا يموت بشير قبل عودة الشيخ علي كما وعده، فربما يأتي إليه بدواء يشفيه مما كان فيه، ولكن الموت لا ينتظر أحدًا لا الشيخ علي ولا غيره وعندما تحين ساعة المرء لا أحد يؤخرها ولو ثانية.

بدأت مراسم التحضير للدفن فقد انطلق الشباب بأمر من الفقيه سليمان إلى المقبرة التي تقع في أعلى التل وذلك ليقوموا بحفر القبر الذي سيكون مرقد بشيرالأخير وعند صلاة العصر من

يوم الخميس اكتظ المسجد بالمصلين فقد صلوا العصر في عجل وأتبعوه بصلاة الجنازة على بشير ودعوا الله أن يرحمه ويرزق أهله الصبر والجلد على فراقه، تسابق بعضهم لحمل النعش على أكتافهم لما فيه من الأجر العظيم ومضوا به إلى المقبرة التي كانت تبعد عن القرية مسافة كيلومتر تقريبًا وبعد أن وصلوا إلى القبر وضعوه فيه مكفنًا بقماش أبيض كما جرت العادة وأهالوا عليه التراب في صمت ووقار، كان الحاج (إمحمد) جالسًا على جذع شجرة كانت قد قصت فيما مضى بالقرب من سور المقبرة، كان يستند على عكازه وكانت الفاجعة منقوشة على وجهه وهو يرى ابنه البكر وهم يُهيلون عليه التراب، كان يتمنى أن لا يرى هذا المنظر في حياته وأن لايُفجع في أي ولدٍ من أولاده ولكن الأقدار أبت أن يكون موته قبل موت أحد أولاده، كان قلبه ينزف المًا وحزنًا، كانت عيناه قد تجمدتا وأبى الدمع أن ينزل منهما، فعندما يكون الحزن عميقًا يجف دمع العين وينزق القلب دموعًا من دم، كان الازدحام شديدًا في ذلك اليوم، وقف الحاج منصور إلى جانب أخيه ووقف بعض أقاربهم في صف واحد مستندين على سور المقبرة يتلقون واجب العزاء وكان عمر يتوسط هذا الصف وبدأ الناس يتوافدون لتقديم واجب العزاء ومكثوا في المقبرة إلى قبيل غروب الشمس بقليل فما يزال بعض المعزين يتوافدون.... وفجأة خر الحاج (إمحمد) مغشيًا عليه، سقط عكازه الذي كان يستند عليه وانكب على وجهه فهرع إليه كل من كان هناك ووجدوه

قد فارق الحياة هو الأخر،، مات وكأنه يأبى أن يعود لبيته دون فلذة كبده بعد أن وضعوه في صدعٍ من الأرض غير موسد ولا ممهد بلا جليس ولا أنيس، عندما علم عمر بموت أبيه أيضًا لم يستطع الوقوف على قدميه وسقط باكيًا من هول ما حصل، كان منظره وهو يبكي يوجع القلوب، فقد فُجع كل من كان في المقبرة في ذلك اليوم، وبرباطة جأش أمر الفقيه سليمان بعض الشباب بحفر قبر أخر للحاج (إمحمد) بجانب قبر ابنه بشير وغسلوه في عجل ولف في كفنه ودفن بجانب ولده..

كان الحاج (إمحمد) أول ميت يدفن بعد غروب الشمس في (ترهونة)، لقد تعجل الفقيه سليمان في هذا الأمر وكأنه يريد أن يطوي سجل هذه العائلة ويريحها من عذابتها التي بدت وكأنها لن تنتهي أبدًا ورجع عمر في ذلك اليوم مودعًا أباه وأخاه في يوم واحد كانت مصيبته عظيمة، ولكن كان هناك دائمًا رفيقًا للمصائب فلاتنزل إلا به ألا وهو الصبر والجلد على الصبر، عندما يرى الناس صاحب المصيبة يتعجبون من صبره وجلده وقدرته على احتمال ما جرى له ولكن شعوره يكون مختلفًا عنهم تمامًا فلا تنزل المصائب إلا ويسبقها عزمٌ على الصبر.

***

مرت الأيام ببطء شديد، لم يشعر عمر بالوحدة إلا بعد انصراف من كان حوله من المواسين، لقد انصرف الكل إلى شأنه،

فالحياة لن تتوقف عند هذا الحد، كان يتقاسم الحزن مع أخته مريم وحيدين غريبن وكان عمهما منصور يتردد عليهما من حين لأخر يواسيهما ويقوم على كل شوؤنهما.

مر قرابة الشهر وطالب خليفة بزوجته فانقادت لذلك الطلب وانتقلت إلى العيش في بيت زوجها حيث اتخذ خليفة لنفسه وزوجته غرفة في بيت أبيه ليمضيان معًا حياة الله وحده يعلم إن كانت هانئة أم لا....

لم يكن هذا الأمر يعجب مزنة لكنها تظاهرت بالطيبة وجعلت الأمر يبدو طبيعيًا، أما عمر فقد مكث وحيدًا في البيت بالرغم إصرار عمه على أخذه معه إلى بيته ليكون تحت عينيه يعتني به ويقوم على شوؤنه كأحد أولاده ولكنه أبى ذلك بشدة وفضل أن يبقى وحيدًا في بيت أبيه، كان بقاءه وحيدًا قد بدأ يصقل أفكاره ويضفي عليه بعض التعقل ورجاحة العقل وقد اعتاد على الوحدة شيئًا فشيئا ولم ينقطع عن الذهاب إلى كُتاب الفقيه سليمان وبدأ بتعلم القرآن وحفظه وكان يصارع نفسه ليتغلب على شيطانه كما أخبره الشيخ علي، كان يحارب شهواته وأفكاره التي طالما سيطرت عليه، إذ كيف لكل هذا أن يحدث له بينما كان من هم في سنه ينعمون بعيشة هانئة مع ذويهم، وكيف للقدر أن يختاره من بينهم جميعًا ويُنزل على رأسه كل هذه المصائب ويطارده بهذا الشكل المريع، تبا لهذا القدر، ولكنه أدرك أن عليه أن يؤمن

بقضاء الله وقدره وإلا انقلبت هذه الأفكارفي رأسه إلى وحش يقضي عليه، كانت أعماقه تضج بمشاعر شتى بين حزن على من فقد وشوق إلى أخيه عبد الله برغم كل ما فعل، وقلق على مريم لأنه يعرف جيدًا أنها تعيش مع شيطانة تمشي على قدمين، كان يحمل كرهًا شديدًا لزوجة عمه فهي سبب ماهو فيه الآن، كان يضج بخليط من المشاعر المختلفة المتناقضة، كان يضعف أمام مشاعره من حين لأخر وكان يظهر ذلك على وجهه وجسمه وكان يقاوم ذلك بصبر ثقيل، مرت الأيام وتوالت إلى أن خطر بباله وتفكر وعد الشيخ علي له بالعودة من أجله ومن أجل أخيه، خطر ذلك بباله فقط ولم يسأل نفسه ما الذي أخر قدوم الشيخ علي إلى (ترهونة) كما وعد، تلاشى ذلك الخاطر من باله في ليلة طويلة و في الصباح التالي استيقظ على طرقات قوية على باب بيتهم وإذا به الشيخ علي واقفًا أمامه بشحمه ولحمه، لم يكن حلمًا، بل كان يقينًا يراه أمامه بعينيه، أيقن سبب تفكيره في الليلة الماضية فكأنه أحس بقدومه، كان ذلك أشبه بالتخاطر عن بعد، عانقه الشيخ علي عناقًا حارًا وكان قد علم كل ما حدث من الفقيه سليمان ومكث معه حتى الليل، كان عمر يحدثه بكل المصائب التي حلت به وبعائلته وكيف أن الأقدار تختار شخصًا بعينه ليكون مستودع مصائبها وكيف أن العدل مفقودٌ في هذه الدنيا، تجد أناسًا تكاد السعادة أن ترفعهم فوق السحب، أغنياء يحظون باحترام الجميع، بينما تجد أخرين يتجرعون كأس الذل والمهانة والفقر ويتلقون المصائب

واحدة تلو الأخرى، أخذ يسأل الشيخ علي، كيف لي أن أتحمل كل هذا، كيف لي أن أهيئ نفسي لمستقبل يفترض به أن يكون سعيدًا وكل الدلائل تشير إلى أن المصائب تعرف رائحتي جيدًا وتستمتع بمطاردتي دائمًا أينما كنت، كيف له أن يجد رمالًا غير متحركة يقف عليها، كان الشيخ علي يستمع اليه بصمت وفجأة انفجر ضاحكًا بضحكة أوحى إليه بها أن كل هذا ليس إلا مجرد أوهام وقال له:

– أنت تعرف جيدًا أن الموت حق على كل إنسان وأن الإنسان يولد يوم يولد وقد كتب معه كل شيء حتى اللحظة التي سيموت فيها، وأما الأحزان فما هي إلا مسألة وقت فقط، سوف تنسى كل هذا ويصبح كله مجرد ذكريات قديمة تحكيها لأولادك وربما لأحفادك إن أطال الله في عمرك، هيه لو أحكي لك ماحدث لأُناس أعرفهم ستقول في نفسك أن ما حدث لك مجرد لعب، ولكن دعنا نسلم جدلًا أن ما حدث لك هو كثيرٌعليك جدًا ولكن إذا نظرنا إلى ما يصيب المرء في هذه الدنيا بعقل كبير وبقلب مؤمن فسنجد أن هذا دليل قاطع على حب الله ورعايته، تسألني كيف يكون ذلك؟

إن الله إذا أحب إنسانًا في هذه الدنيا أنزل عليه المصائب واحدة تلو الأخرى كي لا يرضى بهذه الحياة الدنيئة ويستكين لها، لأن الله أعد لنا حياة أخرى أفضل من هذه الحياة بألف مرة،

حياة لا حزن فيها ولا نصب، ربما لن تفهم هذا الآن ولكن عليك أن تكون على يقين من ذلك، أنت بخير ما دمت مع الله حتى لو أتخذك كل من فوق هذه الأرض عدوًا، حتى لو أمطرت عليك السماء بوابل مصائبها فإن ذلك لا يهم، أن هذه الحياة مجرد رحلة أو لنقل أنها طريق إلى حياة أخرى أنت وحدك تختار إن كانت أفضل أو أسوء أنت وحدك تقرر مصيرك، ثم أن الحزن شيء لابد منه في بعض الأحيان أنه يجعل قلبك يصفوا ويجعل بصرك أكثر حدة لرؤية الأشياء الغامضة من حولك، وأخذ الشيخ علي يغير مسار الحديث بذكاء وفطنة وكأن شيئا لم يحدث وأخذ يسأل عمر إلى أين وصل في حفظه للقرآن الكريم وكيف هي أحواله في الكُتاب مع الفقيه سليمان وسأله أيضًا إن كان قد أفشى السر الذي بينهما عن زوجة عمه مزنة،

– أعرف أنك رجل فلن تقوم بإفشاء سرٍ أؤتُمنتَ عليه، أسأل من باب السؤال فقط!

– السر الذي بيننا دفن مع أخي وأبي في نفس اليوم فلا تقلق ياشيخي! أنا فقط قلق من أمر واحد وهو وجود أختي مريم مع تلك الشريرة في بيت واحد، أعرف جيدًا كما قلت لي ذات مرة أن الجني يكذب في هذه الأمور وذلك لزرع الفرقة والخصومة بين بني البشر، وأنهم يكذبون كما يتنفسون ولكنني أكاد أُجزم أن ذلك الجني لم يكن كاذبًا بشأن امرأة عمي مزنة، أنا على يقين من ذلك!

– أسأل الله العظيم أن يحفظ أختك مريم ويقيها شر الخائنين، اسمع يا عمر دع عنك كل هذا فلماذا تقلق من أمر أنت لست متأكدًا أنه سيحدث، أوصِ أختك مريم بقراءة القرآن إن كانت تجيد القراءة وأن لم تكن كذلك فعليك أن تجعلها تحفظ المعوذات فإن ذلك سيكفيها، أنت الآن شيخ وتستطيع تحفيظ القرآن أليس كذلك؟

ولا تفكر في هذه الأمور مجددًا، دع الخلق للخالق ربما نكون مخطئين بشأن زوجة عمك وربما نكون محقين فلنسأل لها الهداية، فإن الله يهدي من يشاء، دع عنك كل هذا، ما أنت فيه الآن سببه الفراغ الذي تعاني منه يجب عليك أن تجد لنفسك عملًا تكسب منه رزقك فلم تعد صغيرًا، ثم سكتوا لبرهة من الزمن ونطقوا في الوقت نفسه وقالا نفس الكلمة، مارأيك لو، ثم سكتا وسأل عمرالشيخ علي ما الذي كنت تريد قوله؟

– كنت أتساءل إن كان من الممكن أن تذهب معي فأنا كثير الترحال من مكان إلى أخر وأحتاج لمن يساعدني في عملي وبهذا تكون قد وجدت لنفسك عملًا تكسب منه رزقًا حلالًا وأنا أكون وجدت من يعينني، فما رأيك؟

– كنت سأطلب منك ذلك من قبل أن تتكلم ودعوت الله في نفسي بأن تقبلني رفيقًا لك في ترحالك، أو ه ه يا إلهي كم أنا سعيدٌ لذلك فقط علي أن أودع أختي مريم ثم ننطلق بعيدًا من هنا في أقرب وقت ممكن! ضحك الشيخ علي وأردف قائلًا:

– إذن، أنت على عجلة من أمرك لترحل من هنا؟

– اليوم قبل غدٍ!

– عليك أن تستشير عمك منصور فهو الآن بمثابة أبيك وعلي أن أخبر الفقيه سليمان بذلك!

خشي عمر أن لايوافق عمه منصور خشية أن يقول عليه الناس أنه فرط في ابن أخيه في أول فرصة أتته ولكن الشيخ علي وعده أن يتكلم معه في هذا الأمر ويقنعه بذلك.

كان حدس الشيخ علي يخبره بأن عمر سيكون ذا شأن عظيم في حياته وكان ذلك واضحًا من بريق الذكاء في عينيه ولأنه تعرض في هذه السن المبكرة لكل هذه الشدائد التي تصقل الأفكار وتضفي عليه مايكفي من الجلد ليكون مستعدًا لقسوة الحياة وتعلم دروسها التي تكلف باهظًا، كان الشيخ علي يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، يريد أن يكفل عمر لأنه أصبح عرضة للضياع فقد بقي وحيدًا مع أحزانه وأوهامه ولا حول له ولا قوة عليها، والأمر الأخر هو أنه رأى في عمر رغبة لتعلم كل شيء، فقرر في نفسه أن يعلمه كل ما تعلمه من القرآن والفقه والسنة وكيفية علاج السحرالذي انتشر بشكل مريع في تلك الآونة، كان يريد أن يورثه علمه دون أن يبخل عليه بشيء، كان سيصنع منه أسطورة هذا المجال، أصر على أخذه معه لكي لا يبقى وحيدًا تتلقفه الأحزان وتنهشه أفكاره ويضيع في بحر فراغه وينتهي أمره

إلى الضلال وقسوة القلب والبعد عن الله فما من مصيبة أعظم من ذلك.

كان ظن عمر في محله فقد رفض الحاج منصور بشدة رحيله مع الشيخ علي خشية مما سيقوله الناس عنه، سيتناقلون سيرته بعد موت أخيه ويقال قد فرط في ابن أخيه وأرسله إلى المجهول ليوفر لقمة يأكلها في بيته، وربما سيظن البعض منهم أن زوجته هي من أوحت إليه بذلك ودبرت هذا الأمر، لا لا مستحيل لن يحدث هذا أبدًا،أخبرهم أن عمر من لحمه ودمه فكيف لهم أن يطلبوا منه ذلك، وبالغ في هذا الأمر بشكل كبير ولكن بعد جدال طويل مع الفقيه سليمان والشيخ علي وأصرار عمر أذعن لرغبتهم بعد أن أتهمه الشيخ علي مداعبًا بأنه لا يثق فيه.

– يا حاج منصور أيعقل ألا ثثق بي وأنا الشيخ علي، هل تظن أنني سأبيعه عبدًا رقيقًا كما يباع العبيد، سأحرص على أن يتم حفظ القرآن وسأعلمه التجارة والفقه، سأجعل منه رجلا حقيقيًا، ماذا تريده أن يفعل هنا يجلس عند قبر أبيه ويبكي هاه، أهذا ما تريد، ثم دع عنك كلام الناس فمن راقب الناس مات همًا، ولا تكن أنانيًا يا حاج!

– حاشا لله يا شيخ علي، أنت تعلم أنني أسلمك رقبتي ومعها سكين، ما تأمر به ياشيخ هو ما سيكون، ولكن قلت ما قلت من هول ما سأسمع من عباد الله، ولكن كما قلت فليذهب الناس

جميعًا إلى نار جهنم، أنا مطمئن على عمر وهو معك أكثر من كونه معي فلتصحبكم السلامة وكان الله في عونكم، وأخذ يد الشيخ علي ليقبلها ولكن الشيخ رفض ذلك بكل تواضع.

بارك الحاج منصور ذلك الرحيل ولكن قلبه الرقيق كان يتألم لفراق ابن أخيه عمر وكانت مشاعره متضاربة فهي بين شعوره بتفريطه في ابن أخيه وبين ما سيقوله الناس عنه وهل سيحتمل همزاتهم ولمزاتهم في قادم الأيام وهل سيكون ما فعله مقنعًا أمام الناس أم أنه سيظهر بمظهر البغل الذي لا يجيد التصرف ولا قرار له، وما هي إلا أيام قليلة حتى ودع عمر أخته مريم التي أثرت مصلحته وما سيلاقيه من العلم والعمل مع الشيخ علي على بقائه معها، سلمت أمرها إلى الله ودعت له بالتوفيق ورحل دون المبالغة في الوداع وكأنه ذاهبٌ إلى نزهة قصيرة لن يطيل فيها البقاء، ولكن ما إن رحل حتى سكبت مافي جفونها من دموع لفراق أخيها الصغير وأحست بغربة شديدة وكأنها في عالم غريب عجيب تراه لأول مرة ولكن المصائب علمتها كيف ترغم نفسها على الصبر والجلد، أما بالنسبة لمزنة زوجة عمه فقد أثلج صدرها هذا الفراق لتكون مريم وحيدة غريبة لا أخ ولا قريب ترجع إليه وتمنت ألا يرجع أبدًا وأن لا يرى يومًا سعيدًا في حياته.

***

كانت تجارة الشيخ علي تقتضي منه أن يطارد صوف الماشية في أي مكان وأن يذهب من أجل الحصول عليه إلى أصقاع الأرض

فقد كان يستعين بالبغال لحمل بضائعه عندما يذهب إلى المناطق الشرقية والغربية من ليبيا ولكنه يُبدلها بالجمال ويزيد عدد الرجال عندما يعقد العزم على الذهاب إلى المناطق الجنوبية حيث رمال الصحراء والشمس التي لا تتحملها البغال فلن يكون بمقدوره أن يشق رمال الصحراء إلا بالإبل وكان قد عزم أمره على الذهاب إلى (الكفرة) هذه المرة، لذا ستكون هذه الرحلة هي بمثابة أول أمتحان لعمر فقد رجع من (ترهونة) إلى (الزنتان) وأبدل بغاله بالجمال وقصد وجه الله ذاهبًا إلى (الكفرة) وما أن شقوا طريق الحمادة الحمراء حتى ذُهل عمر من الفضاء الفسيح اللامتناهي على مد بصره، لم يكن قد رأي الصحراء من قبل ومضوا حثيثًا إلى رمال الصحراء الخلابة حيث السحر والجمال والطبيعة كما خلقها الله منذ ملايين السنين دون أن يجرؤ أحد على تغييرها أوتدنيسها، كان الشيخ علي يمعن النظرفي عمر طوال الطريق دون أن يحدثه أويقطع عليه حبل ذهوله لعلمه بأن الدهشة أخذت من عقله كل مأخذ وأراد له أن يكتشف العالم وكل ما حوله بخياله وعقله دون التدخل في تأملاته، كان الشيخ يدرك أن الصمت والتأمل هما السبيل الوحيد لإدراك هذا الوجود الملئ بغرائب الأشياء، أخذ عقل عمرالصغير يطرح الأسئلة الغزيرة وكان خياله يجيب على كل تساؤل بتكهن دون أن يكترث للجواب إن كان صحيحًا أم لا، ليروي عطش المعرفة لديه، فرمال الصحراء تخبئ كثيرًا من الأسرار والألغاز وتفرض على العقول طرح تساؤلات جمة...

كانت القافلة تضم قرابة العشرين بعيرًا وكان قد خصص أحد جماله لعمر نظرًا لصغر سنه وكونها أول تجربة له وكان قد لف حول رأسه ووجهه عمامة بيضاء غليظة تقيه حرارة الشمس وذرات الغبار كالتي يرتديها سكان الصحراء من الطوارق والتبو، كان يسمع من خلالها صوت ضجيج عقله المتفاقم، وكان بقية مرافقيه الخمسة يمشون على أقدامهم ويتناوبون على ركوب الجمال من حين لأخر حيث كانت محملة ببضائع شتى، كانت شمس الصحراء تشوي الوجوه ورمالها تعكس حرارتها بشدة حتى ليخيل إلى من هناك أنه يمشي فوق جهنم، بدأت الرحلة في منتصف شهر مايو، حيث كانت الحرارة تشوي الوجوه نهارًا وكان البرد القارص يسلخها ليلًا، كانت أشبه برحلة إلى الجحيم وكان جل تفكير الشيخ علي منصبًا على عمر وكان شعورًا بالقلق ينتابه من حين لأخر ويتساءل في نفسه إن كان من الصواب أن يصطحب صبيًا في هذه السن إلى رحلة شاقة وخطيرةٍ كهذه وهل بمقدوره أن يحتمل كل هذا التعب والعناء ولكنه كان مجرد أن ينظر في عيني عمر يذهله بريق عينيه وإصراره على التركيز وفهم كل ما يحيط به فيطمئن قلبه ويتلاشى خوفه وقلقه، كان عمر لم يغمض له جفن منذ أن خرج من (ترهونة) إلا نعاسًا خفيفًا سرعان ما يتلاشى وكان أكثر ما أذهله في هذه الرحلة هو شكل السماء المرصعة ليلا وكأنها اكتست برداء من النجوم، كان شكلها يذهل البصر ويبث السرور والسكون في النفس، في أول ليلة تمر عليه في الصحراء

لم يكن يريد لجفنيه أن يلتقيا من روعة النجوم وكثرتها، كان شيئًا لا يصدق، وضع بعض متاعه تحت رأسه وأدخل نفسه تحت غطاءه الغليظ المصنوع من الصوف الذي أحضره معه من بيتهم، لف به رأسه وجعل عينيه مفتوحتين ترصدان النجوم والكواكب والمذنبات والشهب التي كانت تطارد الشياطين كما أخبره بذلك الشيخ علي، كان شعورًا جميلًا وشفافًا يضفي على النفس كثيرًا من السكينة والراحة بعد يومٍ شاق من السفر، وبينما هو يتأمل بنشاط وذهول أحس فجأة بنعاس ثقيل بدأ يتسلل إليه وينال منه، كان شعورًا رائعًا فيه بعض اللذة ولكنه غير مريح، كان مع كل ذلك التعب الذي لاقاه صافي الذهن قوي الشعور بكل شيء، أدرك في تلك الليلة الشاعرية الصافية وبحسه الفطري أن الشيطان قريبٌ منه جدًا جاء ليغطيه برداء من نعاس لكي ينام عن صلاة الفجر، كانت تلك أول مرة يشعر فيها بهذا الشعور الغريب فزاده ذلك عنادًا على عناد وفتح عينيه بشدة وكأنه يتحدى الشيطان وانتفض من مكانه واقفًا فأدرك أنه كان على صواب فلم يعد وقت صلاة الفجر بعيدًا، أدرك أن الشيطان بدأ يرمي بسهامه للنيل منه وإقصائه عن الصلاة ولكن إدراكه للأمر جعله يشعر ببعض الانتصار وزاده ذلك حماسًا وقوة وحدث نفسه بأنه قادرًا على التغلب على الشيطان في أي وقت وفي أي مكان طالما كان يملك هذا الأحساس المرهف والأدراك لأقتراب الشيطان منه ويكون بذلك قادرًا على النجاة من الوقوع في فخه والابتعاد عن الذنب والخطأ...

تحركت القافلة قبل شروق الشمس والشيخ علي في مقدمتها، يعرف كل شبر من تلك الرمال ويعرف العلامات التي يهتدي بها في هذا الفضاء الفسيح، الجمال تشق رمال الصحراء دون هوادة و الرجال يمشون في خط مستقيم دون النظر إلى الوراء وبدأت خيوط الشمس الصفراء تعلن حربها دون رحمة على قطرات الندى الصغيرة فوق أغصان الشجيرات المتهالكة الصامدة بجبروت في أحضان هذا الجفاف الرهيب، وكانت الجِمال تغوص بأرجلها في بحر من الرمال وكان عمر قد أمعن النظر إليها وسمر عينيه عليها، كلما غاصت قدم ظهرت قدم أخرى في حركة متناسقة وكأنها كانت ترقص على أنغام السكون الخفي الذي لا يسمعه غيرها، كانت أدق التفاصيل تجذب انتباهه إليها، وكلما أشاح بنظره إلى أي مكان تعود نظراته لتقع على أرجل الجمال وهي ترقص، لم يكن هناك ما يلبي غريزة العينين إلى الرؤية، الفضاء الفسيح يملأ المكان، سماء زرقاء ورمال صفراء ونادرًا ما تجد شجيرة صغيرة تقاوم في كَبد من أجل البقاء في هذا الفضاء، سماء زرقاء ورمال صفراء يلتقيان ويتعانقان وكأن عهدًا بينهما باللقاء، وكأن السماء قد أطبقت بلونها الأزرق على رمال الصحراء الصفراء في مزيج من الألوان تتفاوت درجاته كلما نظرت إلى الأعلى، كان يتمايل مع ميلات الجمل وكانت أفكاره تتمايل أيضًا، تارة تتراءى له أخته مريم في خياله فيجعل ذلك غصة في قلبه، وينقضُ عليه الشوق لأخيه عبدالله تارة أخرى فيعصر قلبه

بين ضلوعه، ثم يصاب بالإحباط تارات أخرى، ثم يجول بخاطره بيت خاله مصباح وتلك الأيام التي أمضاها هناك مع هنية ابنة خاله وكيف كان يرتع ويلعب دون حزن ولا شقاء وكيف أن الدنيا كانت بلون جميل ووجه حسن قبل أن تكشف عن وجه كريه مقيت يُوجع القلوب ويُدمي الفؤاد، ثم تلتهب أفكاره ويتذكر تلك الطفولة الشقية وكيف كان يتصرف مع حبيبته هنية وكأنهما بالغان بالرغم من صغر سنهما، كانا يعرفان كل شيء دون أن يدرك الكبار ذلك، كانت أجمل أيامه عندما يلعبان معًا وكأنهما ملكين، كانت وجنتاها الصغيرتان ورديتي اللون ولعينيها لون عيون القطط الأصفر وشعر ذهبي كالحرير ورائحة جسمها مميزة جدًا لا يتذكرها الآن ولكنه يستطيع أن يميزها من بين ملايين النساء، كانت جنية صغيرة لطالما أحبها وأحب اللعب معها والبقاء بقربها، ثم يهجم عليه حزن شديد ويحس بشيء ثقيل داخل جوفه ويشعر بالسخط على أخيه عبدالله الذي كان السبب في بعده عن حبيبته ويتمنى أن يرجع الزمن إلى الوراء وعبد الله لم يفعل فعلته الشنعاء، ولكن ذلك كان مستحيلا، لن يرجع الزمن إلى الوراء والذي حدث لا يمكن تغييره، أحس بأنه يغرق في أعماق أحزانه ويتوه في ظلمات نفسه البائسة وأصبح ذلك الفضاء الفسيح الرحب ضيقًا جدًا وأنحصر تفكيره في هذه النقطة ولم يخرج منها، تمتم في نفسه وبصوت غير مسموع، الله غالب على أمره، ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبمجرد أن ذكر أسم الله تلاشت كل

أحزانه وتصاغرت آلامه وتجدد الأمل في نفسه وأدرك أن الشيطان كان جالسًا وراءه على ظهر البعير يتقاسم معه ذكريات الماضي الجميل ويحرك أشواقه وغرائزه ويزيد سخطه على أخيه وعلى الدنيا بأكملها ليوقع به في براثن اليأس والحقد ويمرغ وجهه في وحل الكراهية والغضب ولن يفلح بعدها أبدًا، ولكنه وضع له حدًا هذه المرة أيضًا فليس لديه وقت كافي لكل هذا وأنه سينظر أمامه لمستقبله في العلم والعمل، وتساءل في نفسه كيف له أن يدرك مجئ الشيطان في وقت مبكر كي يمنع عن نفسه الحزن والذنب والشعور بالياس والأسى، تعهد لنفسه أن يكون أكثر فطنة وأكثر تركيزًا في المرات المقبلة، سيكون له بالمرصاد..

كانت الأجواء في (ترهونة) تبدوا طبيعية جدًا فمنذ رحيل عمرعنها لم يتغير فيها أي شيء، كان الحاج منصور ينعم ببعض الطمأنينة والشعور بالرضا وعدم التقصير وقليل من راحة البال، كان قد تغلب على شعوره بالتقصير وأدرك أن من مصلحة عمر الذهاب مع الشيخ علي لطلب العلم والرزق وكان يظن أن مريم تنعم بحياة هادئة مع ابنه خليفة فلم يسمعها تشتكي يومًا، كانت تحيا حياة طبيعية لا تنغيص فيها ولا شقاء، كان يظن أيضًا أن الله قد هدى زوجته مزنة وأرجعها إلي جادة الصواب فقد كانت تجيد النفاق وإخفاء مشاعرها بشكل مثير، لقد كان مخطئًا بشأن مزنة فقد كانت تتحين الفرصة المناسبة لكي تعض كأفعى هندية وتبث سمومها فى من تكره فقد أسود وجهها وبرزت عظمتي وجنتيها

وفي عينيها بريق من الغل لا ينطفئ وفي أعماقها براكين من الحقد تتوق إلى الطغيان، كانت قد عزمت أمرها على الخروج ليلًا وزيارة (فجرة) ساحرة الجبل وذلك لتصب جام حقدها على زوجها وابنة أخيه ولكن الظروف منعتها من تنفيذ ذلك فلم تتهيأ الفرصة المناسبة لكي تخرج دون أن يشعر بها أحد، ولكنها عرفت كيف تصبر وتذكي نار حقدها أضعاف ماهي عليه، لقد أخذت بعض الأغراض من زوجها ومن مريم وزادت عليها بعض الشعيرات من شعر مريم حيث سلته من مشطها دون أن تعلم، انتظرت اللحظة المناسبة وأحست بقربها مثل حيوان مفترس يشم رائحة الدم من بعيد، ففي أحد الأيام من تلك الأيام الرتيبة جاء الفقيه سليمان إلى الحاج منصور وأخبره أن أحد أصدقاء أخيه (إمحمد) قد مات وكان هذا الصديق يقطن بعيدًا عن (ترهونة)، كان يعيش في مدينة الخمس وقد عزما أمرهما على أن يتوجها فجرًا إلى مدينة الخمس لتقديم واجب العزاء إلى أهله، كان الحاج منصور يعد هذه الرحلة كنوع من الوفاء لأخيه المرحوم، فلن يتأخر عنه حتى وهو تحت التراب، أنطلقا فجرًا وعادا إلى (ترهونة) عند مغيب الشمس وكان الحاج منصور قد ظهر على وجهه وجسمه التعب الشديد وظنت مزنة أنه سيغط في نوم عميق جراء هذا التعب الشديد وأنها فرصة لا تعوض فقد كان نومه فيما سبق مثل نوم القطط يستيقظ لمجرد سماعه لأي حركة بسيطة ولكن هذه المرة كانت متأكدة أنه سيغط في نوم عميق مثل الأطفال، لقد قررت في نفسها أن تكون

تلك الليلة هي ليلة خروجها من البيت لتلتقي ب(فجرة) وتنجز ما كانت تريد فقد أعياها الصبر والانتظار وتفاقم الغل في قلبها لدرجة كبيرة، وما أن هبط الظلام حتى أحضرت لزوجها كوبًا من الشاي كانت قد وضعت فيه عشبة تساعد على النوم العميق، وبعدها تهيأت للخروج فقد أوثقت حزام رداءها بشدة وربطت وشاحين على نعليها كي لا تسقط منها في طريقها إلى الجبل ولكي لا تترك وراءها أي أثر وأنتظرت حتى غط الجميع في النوم وفتحت الباب وخرجت مثل الأشباح، كان الحاج منصور من أولئك الناس الذين إذا تعبوا تعبًا شديدًا بعد وقت طويل من الراحة يصابون بأرق شديد وكان في تلك الليلة يصارع من أجل غفوة كي يزيح عن نفسه تعب الطريق ولكن دون جدوى، وكان يشعر بأن مزنة كانت تراقبه وكأنها تنتظر زائرًا غير مرئي، أشتد فضوله فتظاهر بالنوم وكان يختلس النظر إليها من وراء أهدابه وبدأ يصدر صوت شخيرمدويًا مما دعا مزنة للاطمئنان، لقد أدرك أنها مقبلة على أمر ما ولكنه لم يدرك ماهو، راح يراقبها بحذر شديد لكي لا تشعر به وأصيب بذهول كبير عندما رأءها تتهيأ وتخرج من باب البيت في هذه الساعة المتأخرة من الليل، راح قلبه يدق دقات شديدة متسارعة وأصبح الدم يغلي في رأسه وكاد أن ينفجر وكل عروقه تشنجت وأحس بهول الموقف، كان قلبه يصدر ضجيجًا مريعًا ولم يكن في وضع يسمح له بتمييز الأشياء من حوله بوضوح وكأن الدنيا فقدت كل ألونها وبدا كل شيء رماديًا داكنًا في عينيه، ذهب

مسرعًا إلى خزانته وأخرج منها بندقية الصيد ذات الفوهتين وأدخل فيها حشوتين بيدين مرتعشتين وأنتعل حذائه وخرج وراءها مسرعًا كي لايفقد أثرها، كان حريصًا كل الحرص ألا تراه وألا تشعر به، كان كل همه هو معرفة إلى أين تريد أن تذهب هذه المرأة في هذه الساعة من الليل، كان يضرب رأسه بفوهة بندقيته لكي يتأكد أنه لا يحلم وكان يأمل من كل قلبه لو كان يحلم ولكن ما يحدث أمامه واضح وضوح الشمس بالرغم من عتمة الليل المظلم، بدأ الشك يتسرب إلى عقله وراح يسأل نفسه هل من المعقول أن تكون امرأة فاسدة عاهرة، أيعقل أن يكون هناك من ينتظرها في مكان ما؟

هل من المعقول أن أخدع طيلة عمري من امرأة ساقطة، هل كنت حمارًا طيلة تلك السنوات؟

هل أولادي الذين أنجبتهم هم من صلبي أو من صلب رجل أخر؟

عليكي ألف لعنة إلى أين تذهبين أيتها العاهرة... من ذا الذي يجرؤ أن تكون له علاقة بزوجتي، ولكن من سيقيم علاقة مع عجوز شمطاء في مثل سنها وقد تجعدت ملامح وجهها وأصبحت كالكلبة الجرباء، ولكن من المحتمل أن يكون هذا منذ وقت طويل ولازال قائمًا إلى الآن! أعوذ بالله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الوسواس الخناس، أوه ه إن مجرد خروجها من البيت في هذه الساعة المتأخرة من الليل تستحق عليه الموت،

أه يا رأسي،، كان يمشي الهوين وراءها إلى أن وصلت إلى أعلى الجبل فنفض عنه شكوكه وأدرك أنها ذاهبة إلى (فجرة)، أقترب شيئًا فشيئًا وراءها تدخل إلى كوخ تلك الشريرة، ثم لم يسعفه عقله ماذا عليه أن يفعل وعاد إليه الشك من جديد وقال في ذات نفسه، ربما كانت (فجرة) تلك الفاجرة ترعى هذه الفاحشة فعجوز كلبة مثل هذه يمكنها أن تفعل أي شيء لكي ترضي شياطينها، تابع خطواته، كان قد حبس أنفاسه إلى أن وقف بجانب النافذة المطلة على وسط الكوخ ثم أطرق سمعه جيدًا وسمع ما جاءت زوجته من أجله بعد أن ألقت إلى (فجرة) الصرة التي بيديها،

– أسمعي ياخالتي (فجرة) يبدو أن السحرالقديم الذي فعلته لزوجي سابقًا قد فقد مفعوله وأريد واحدًا أخر، أريدك أن تجعلي من زوجي منصور ولد مغلية بغلًا أقوده إلى حيث أشاء، وأركبه متى أشاء، لا أريده أن يرد لي طلبًا ولايعصي لي أمرًا حتى ولو طلبت منه أن يقفز من أعلى هذا الجبل عليه أن يسمع ويطيع مثل الكلب وأن تجعليه ذليلًا أمامي بقية حياته وأن تطمسي على رجولته فلا يستطيع أن يرفع عينيه في وجهي بعد اليوم، فهذا أكثر شيء يقهر الرجال في هذه السن، حتى يكون كالكلب أربت على ظهره متى أشاء وأرفسه بقدمي متى أردت ذلك، يا خالتي (فجرة) أريد أن تكون زمام الأمور كلها بيدي هاتين أحكم كيف أشاء وأنهي كيف أشاء، هذا بالنسبة للكلب منصور أما بالنسبة لابنة أخيه مريم تلك الفاجرة فعليك أن تجعلي ابني خليفة يراها كجردة

جرباء وأن يريها نجوم السماء في وضح النهار، أريدها أن تفقد كل جنين تحمل به وأن يطلقها وتفقد عقلها وأن تصبح عاهرة سيرتها على كل لسان، أريد خليفة أن يتزوج عليها قبل أن يطلقها لتذوق مرارة الذل فلا شيء يغيض المرأة إلا امرأة أخرى تشاركها فراش زوجها، ثم بعد ذلك يرميها كما تُرمى الكلاب التي أصابها داء الكَلب،، كانت (فجرة) جالسة خلف موقد كبير يتصاعد منه دخان البخور التي كانت ترمي به من حين إلى أخر وسط الموقد والشر يتطاير من عينيها كما تتطاير الشظايا الصغيرة من النار، فأجابتها والكره ينطق من شفتيها،

– فعلت الصواب أنك جئت ليلًا لأن مفعول السحر يكون أقوى في الليل وأشد تنكيلًا، خاصة عندما أمزج الأشياء التي جلبتها وشعيرات مريم مع أمعاء جثة كلب أسود ميت متعفنة للتو، هه، ستأخذين لفافة طازجة هذه المرة ستدوم حتى مئة عام، لك ما تريدين ولكن هذا سيكلفك كثيرًا!

– مهما كلف ذلك فها هي حليتي تحت أمرك وبين يديك، وراحت مزنة تنزع عن نفسها قلائدها وأساورها وأقراط أذنيها ولم تُبقي شيئًا إلا خاتمًا واحدًا أبى الخروج من أصبعها، لمعت عيني (فجرة) طمعًا وأخذت تجمع ما ألقت به مزنة من حُلي وذهب وقالت لها،

– فلتكوني على ثقة أن ماجئت لأجله سيتحقق بعد ثلاث ليال من هذه الليلة، هيا أنهضي الآن وعودي إلى بيتك ولا تلتفتي

إلى الوراء أبدًا مهما سمعت حتى تقفلي عليك باب بيتك، هيا بسرعة انهضي.

ارتعد الحاج منصور من هول ما سمع وأصبح يرتعش مثل جريد النخل في يومٍ عاصف، لم تعد قدماه قادرتين على حمله، كانت كل أوصاله ترتعد من قوة الفاجعة، فهذا أخر شيء كان يتوقعه من زوجته، أن يصل بها الحقد إلى هذا الحد، هذا شيء يفوق قدرته على الاحتمال، كان يظن أنه في كابوس مرعب تكون نهايته بعد لحظات عندما يستيقظ أو أنه قد خيل له فهو يرى أشياء غير حقيقية، لقد أحس بوحش كرامته المجروح ينهش قلبه ويقصيه، لقد شعر بوطأة الكارثة، لكن ماحدث أمام عينيه وما سمعت أذناه أشد رعبًا من كل الكوابيس التي عرفها في أحلامه، لبث قليلًا بجوار النافذة ثم استجمع قواه الخائرة وقفز أمام باب الكوخ في اللحظة نفسها التي فتحت فيها مزنة الباب مسرعة، كان الكوخ كالقبو وكان وراء الباب درجتان مائلتان إلى الأسفل يتوجب على كل من يخرج أن يمعن النظر جيدًا إلى الأسفل لكي لاتعيق الدرجتان خطواته فيسقط، وما أن خرجت من الكوخ ورفعت رأسها إلى أعلى حتى رأت الحاج منصور واقفًا أمامها كالصنم وظنت أن خوفها وعتمة الليل جعلتها تتوهم أشياء غير حقيقية، فزادت خطوة إلى الأمام فوكزها بفوهة بندقيته وقال لها إياكي أن تقولي أي كلمة فقد سمعت كل شيء، تريدين أن تجعلي مني بغلًا أه ه؟

أيتها الشيطانة، تريدين أن تركبي فوق ظهري وتقوديني أيتها النجسة لعنة الله عليك وعلى وسلالتك وعلى من رباك أيتها الفاسدة، أمسك البندقية بيده اليمنى جيدًا وكان قد تغلب على أرتعاشة يديه، لقد أصبحت الأشياء الآن أكثر وضوحًا من أي وقت مضى ونظرة عينيه أكثر حدة وكأن شبابه قد عاد إليه فجأة، سحب الرصاصتين بيده اليسرى ووضعهما في وضع الاستعداد، كان أصبع يده اليمنى موضوعًا على الزناد ثم أمسكها من رقبتها بيده اليسرى وسحبها بعيدًا عن الكوخ وقربها إلى سفح الجبل، تأمل وجهها للحظات دون كلام وكانت هي ترتعش خوفًا وتبكي وتضرب بكفيها على وجهها وتقول،

– الله يهديك يا حاج لقد فهمت الأمر على غير حقيقته، لقد جئت إلى هنا للعلاج، والله العظيم لم أكن اقصد، والله العظيم،،،

– قلت لك لا تتفوهي بأية كلمة لقد أدركت حقيقتك جيدًا أيتها العاهرة الملعونة، أنت شيطانة من شياطين الإنس، لعنة الله عليك، لقد رأيت كل شيء بعيني التي سيأكلها التراب يومًا، لقد سمعت كل شيء، أي حجة لكِ بعد الآن، ماذا ستقولين لأولادك كيف ستقابلين ربك أيتها الكلبة، أتفووه عليك، كانت هي تولول وتصيح وتبكي وتنتحب وتتوسل إليه وترجوه أن يعفوا عنها وأن يغفرلها زلتها،

– عفوك يا حاج، رحمتك، أتوسل إليك أقبل قدميك فكر في أولادك، استرني يا حاج وأستر نفسك، إن كل الناس يخطئون

والله غفور يا حاج، أقسم لك بسيدي عبد السلام أني لن أعود لمثل هذه الأعمال أبدًا، وعندما رأت الإصرار في عينيه وأن توسلاتها لن تجدي نفعًا وأن من خدعته طوال تلك السنين لن يُخدع بعد اليوم، أطلقت صرخة مدوية رددها الجبل ثلاث مرات متتالية فضغط على الزناد وكانت فوهة البندقية موجهة إلى رأسها فراح أشلاءً يصعب حتى على النمل التقاطها وسقطت في قاع الوادي دون رأس وجثا على ركبتيه من هول ما فعل، لقد توقفت أحاسيسه فجأة، ولكنه تذكر أن عليه أن يكمل ما جاء لأجله، وقف وتوجه إلى باب الكوخ فرفسه بقدمه اليسرى ودخل ورأى (فجرة) في زاوية الكوخ ترتعد من الخوف واضعة يدها اليسرى وراء ظهرها فسحب الرصاصة الأخرى ووجهها إلى رأسها وفي نفس اللحظة التي ضغط فيها على الزناد ألقت على وجهه بغبار كانت تخفيه في يدها، فتناثرت عظام رأسها أشلاء وفقد الحاج منصور بصره جراء ذلك الغبار المسحور فخرج تلك الليلة من الكوخ بصعوبة وهو يتوكأ على بندقيته يتحسس طريقه إلى البيت، كان يمشي خطوة... خطوتين... ويسقط إلى أن وصل إلى سفح الجبل فتعثرت قدماه وسقط بالقرب من مكان زوجته في قاع الوادي لينهي أمرًا كان يتوجب عليه إنهاءه منذ وقت طويل.....

كاد خليفة أن يفقد عقله لاختفاء والديه وكانت سلمى قد أصيبت بالذهول وحالات الإغماء الشديد فلم يكن لديهما أي بداية يفكران بها أويتتبعان بها رأس الخيط كما يقولون، فلم

تكن لديهما أدنى فكرة عما حدث لهما، كان الناس يصبرونهما بالأوهام فيزعمون أنهما قد خُطفا من قِبل الجن ومضوا بهما بعيدًا إلى البر المخفي الذي يملكه الجنون، كان هناك من يصدق فعلًا أنهما أسيران لدى الجن في مكان مجهول يكون بعيدًا جدًا لا يعلمه إلا الله، وربما يكونان في الأرض السابعة ويكون رجوعهما أشبه برجوع الموتى من قبورهم، لقد أشار عليهما بعض شيوخ الزوايا الصوفية، بإقامة حضرة كبيرة جدًا تُذبح فيها جميع الماشية التي في القرية، حضرة عظيمة، حضرة لا تبقي على أي مخلوق يمشي على أربع إلا ويذبح تقربًا للأولياء الصالحين فمن المؤكد أنهم غاضبون هم وأتباعهم من الجن الصالحين، ويجب أن تُنتَقى أفضل الماشية لتُذبح عند ضريح الولي الصالح (سيدي معمر) حامي (ترهونة) بأكملها، فالدم عندما يسيل يكون كالواقي لجميع الأهالي، سيكون بمثابة القربان الذي يطفئ غضب الأولياء الصالحين ويُبعد عنهم شرالشياطين ويكون بمثابة رفع الراية البيضاء والاستسلام لأقدار الأولياء، وما هي إلا أيام قليلة مضت حتى أقيمت أكبر حضرة في تاريخ (ترهونة) حيث ذُبح لأجلها كل الماشية التي في القرية، كان الأهالي يتقربون إلى الله بجلب ماشيتهم إلى الحضرة ويذبحونها عن طيب نفس، كلٌ على حسب قدرته وحسب ما يملك من الماشية من إبل وغنم وماعز، كان فراث أمعاء الذبائح قد أحال القرية إلى ما يشبه البركة من القذارة والأوساخ، كانت الروائح الكريهة قد علقت في الأنوف لأكثر من

شهر بعد تلك الحضرة، كان الشرط الأساسي أن يُؤكل كل اللحم ولا يُدخر أي أحد شيئًا منه ولا يُقدد ولا يُعطى منه حتى للكلاب، لقد كان شرط الأسياد واضح وجلي كل ما يذبح يجب أن يُؤكل في وقته، كان الذباب قد وجد مكانًا لن يبرحه لسنين طويلة وكانت القرية وجهة لهجرة الكلاب والقطط والذئاب الجائعة، لقد رقص الشيخ المبروك وأتباعه على النار إرضاءًا للأسياد من الأولياء الصالحين والجنون، لقد كانوا يستعيذون بأسياد الوادي راجين منهم أن يمسكوا عنهم شرور العابثين من الجن، كانوا يستغيثون بسيدي (عبد السلام الأسمر) فهوالوحيد الذي يعرف كيف يجعل هذه المخلوقات تتوقف عن إزعاج بني البشر، لقد قرروا أن يقيموا حضرة أخرى مشابهة لهذه الحضرة عند مقام (عبد السلام الأسمر) في مدينة زليتن وعلى كل من يريد النجاة بنفسه أن يلتحق بالركب ويشد الرحال لذلك المقام النقي وإلا لا يلومن إلا نفسه وقد أعذر من أنذر!

لم تكن هذه الطقوس تعجب الفقيه سليمان فقد كان رجلًا مؤمنًا نقي الإيمان لا يستعين إلا بالله ولايؤمن بقدرة الأولياء الصالحين ولا بقدرة الجنون الزرق أو الحمرعلى حد قوله أمام قدرة الله، لقد حاول كثيرًا أن يعلم الناس الدين الحق وأن يعلمهم الاستعانة بالله دون وساطة لأحد، حاول كثيرًا أن يقنع الناس أن لهم ربًا يسمع ويرى ويتصرف في كونه كيفما شاء وأن كل ما يحدث في هذا الكون هو من أقدار الله وحده، وأنه يستطيع أن يحميهم من

كل شر ومن كل سوء وما عليهم إلا أن يطلبوا منه ذلك، وأن الأولياء الصالحين ما هم إلا بشرٌ لا يملكون حتى لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، وأن الجنون والشياطين ماهم إلا مخلوقات خلقها الله لاتملك أن تعطي ولا أن تمنع وأن منهم الصالحون وفيهم المُسيؤون، ولكن أغلب الناس كانوا يعتقدون أن الفقيه سليمان جاحدٌ لمقام الأولياء ولا يعرفون من أين يأتي بهذا الكلام الغريب عنهم وأنهم وجدوا آباءهم على هذا وأنه يجب أن يكون في الكون صالحون يحمون أركان الدنيا وإلا ستكون مرتعًا للشياطين والجنون، لقد حاول أن يقنع الناس أنهم في ضلال كبير ولكن كان هنالك من يدعون كذبًا أنهم فقهاء قد أفسدوا على الناس دينهم من أجل أكل أموالهم بالباطل ومن أجل الوجاهة والسطوة، وكثيرًا ماكانوا يتهمون الفقيه سليمان بالزندقة والمروق من الدين وأتهموه بالجهل وعدم الدراية بواقع الأمور....

بعد مرور قرابة الشهر من تلك الحضرة العظيمة واختفاء الحاج منصور وزوجته عُثر على جثتيهما من قبل راعٍ كان قد مر بقطيعه من الوادي، كانت الجثتان قد أصبحتا أقربَ للهياكل العظمية فقد أكل الدود جسد مزنة بالكامل ولكن جثة الحاج منصور بقي منها ما يدل عليه، وبعد أن عرف الأهالي أن الجثتين تعودان للحاج منصور وزوجته أصيبوا بذهول عظيم، فلم يكن أحد قادرًا على أن يجمع الأحداث في رأسه ويخرج بقصة تقنع فضوله، كيف حدث هذا ولماذا، لم يدرك أحد متى بدأ هذا الامر

وكيف أنتهى إلى هذا الحد، لا أحد يعلم، كان بعضهم يتساءلون لماذا انتقم منهم الجن بهذه الطريقة المريعة بعد أن أرجعهم من الأرض السابعة، ولم يكن أحد بعد يعلم بموت (فجرة)، لقد كان الفقيه سليمان هو الوحيد القادر على ربط هذه الاحداث في رأسه والعودة إلى تاريخ علاقة الحاج منصور بزوجته، كان على يقين من أن منصور رأى زوجته عند (فجرة) فأقدم على قتلها بهذه الطريقة المريعة ولكنه لم يستطع فهم كيف مات الحاج منصور وأقتنع بما في عقله بعد زيارة قصيرة إلى كوخ (فجرة) فوجدها هيكل عظمي وقد تلاشى رأسها، فأدرك الفقيه أن الحاج منصور قام بعمل بطولي يُؤجر عليه عند الله حيث قتل تلك الساحرة الشريرة أيضًا وخلص الناس من شرها، قام الفقيه بأخذ كل الكنوز والأموال التي وجدها في صندوق (فجرة) ووضعها في المسجد لكي يستفيد منها الناس، وكان أكثر ما يقلقه بينه وبين نفسه أن يكون الحاج منصور قد أقدم على الانتحار لكنه أبعد هذه الفكرة من رأسه فهو يعرف أن الحاج منصور رجل مؤمن لايمكنه الإقدام على فعل كهذا، لم يفصح لأحد عما جال في خاطره من أفكار وشكوك ودفن هذا السر في قلبه عميقًا وعاهد نفسه ألا يخبر أحدًا أبدًا وأمر بعض الشباب أن يحفروا قبرين لما تبقى من الجثتين ويدفنوهما في مقبرة القرية بعد أن صلى عليهما الأهالي والفضول يكاد يقتلهم وتنهشهم الأفكار الغريبة، حتى من كان يريد أن يختلق قصة من خياله ينهش بها لحمهما كان الأمر يصعب عليه جدًا فلم

يكن أحدٌ قادرًا على فهم أي شيء، لقد أصبح التفكير والكلام في هذه الحادثة مبتذل ويصيب بالغثيان وبالإحباط لعدم فهم ماجرى فتناسى البعض هذا الأمر وكان البعض يتقول عليهم الأقاويل، حيث أن الحاج منصور وجد زوجته في وضع مخلٍ للشرف مع بعض الرعاة فقتلها، كان مبررهم أنه قتلها فلا شيء يستوجب القتل إلا الشرف وعندما يسأل بعضهم بعضًا، إذن الحاج منصور وجد زوجته في وضع مخل للشرف فقتلها هذه نستطيع فهمها، ولكن كيف مات الحاج منصور؟؟؟

فتخرس الألسنة ويعجزون عن الرد على تساؤلات بعضهم وهكذا أصبحا سيرة على كل لسان وأصبح الناس يأكلون لحمهما حتى وهما ميتان..ولكن القصة أبت أن تنتهي عند هذا الحد فبعد ثلاث أيام من دفنهما جاء حارس المقبرة يجري لاهثًا إلى الفقيه سليمان ليخبره أن إحدى الجثتين خرجت من القبر وكأن أحد ما أخرجها عنوة فذهب معه الفقيه سليمان وبعض الشيوخ إلى المقبرة فوجدوا أن جثة مزنة هي من كانت خارج قبرها وعرفوا أن الأرض أبت أن تطوي بين جنباتها جثة هذه المرأة لسوء ما فعلت فأرجعوها إلى قبرها مرة أخرى وأهالوا عليها التراب وطلبوا لها الغفران من الله ورجعوا إلى منازلهم ولكن هذه الحادثة تكررت لعدة مرات حتى أضطروا لوضع صخرة كبيرة فوق قبرها لكي لا تقذفها الأرض مرة أخرى ودعوا الله بشدة أن يغفر لها ما فعلت أو يسترها فلا تخرج مرة أخرى على سطح الأرض، لم يكن أمرًا كهذا

أو مشابهًا له قد حدث من قبل، كان ها يعتبر من خوارق الأمور، كان حارس المقبرة قد أخبر الفقيه سليمان مرات عديدة أنه رأى نارًا تخرج من قبرها في ساعات الليل المتأخرة، فنهره الفقيه وقال له ألا يخبر أحدًا عن هذا أبدًا وأن يستر الموتى لكي يستره الله في الدنيا والأخرة، ومنذ تلك الحادثة المروعة لم يجرؤ خليفة على الخروج من البيت من هول الفضيحة وكاد أن يفقد عقله، لقد كانت فاجعة شديدة وقعت على رؤوسهم، لقد قرر خليفة خفية أنه من الأنسب أن يترك (ترهونة) ويرحل إلى غير رجعة، وقد ترددت أخبار بعد مُضي بضع سنين أن أحدهم رأى خليفة في طرابلس يعمل حمالًا في الميناء ولم يكونوا متأكدين من ذلك بالضبط ومنذ تلك الحادثة لم يُعرف مكانهم بالضبط وماذا حل بهم، لقد أمسوا ذكرى وحديثًا يحكى من حين إلى أخر بين كبار السن والعجائز..

***

كان الشيخ علي قد وصل بقافلته بآمان إلى (الكفرة) ومكث فيها قرابة الثلاثة عشر يومًا وباع بضاعته التي كانت أغلبها عبارة عن منسوجات صنعت من صوف الماشية واشترى لعائلته بعض التمور وعدد من أحجارالرحى التي كانت تُطحن بها حبوب القمح والشعير وعاد أدراجه قاصدًا الرجوع إلى الديار وعاد من نفس الطريق التي جاء منها وكانت مدينة جالو أول مكان يريح فيه قافلته فمكثوا فيها ليلة واحدة، كان عمر قد نسى كل أحزانه وأنشغل

خياله بما كان يسمع من حكايات غريبة عن الصحراء وسكانها ومن قصص الغيلان والجن الذين يطاردون بنو آدم أينما كانوا، فقد حكى له أحد أتباع الشيخ على قصة ذلك الصياد الذي خرج ذات يوم إلى الصيد فأعترضت طريقه أرنبٌ برية وراح يتتبعها بغية صيدها ولكنها كانت تغيب عن ناظريه وتتحول إلى امرأة جميلة تأسر القلوب، لم يستطع الصياد المسكين منع نفسه من الذهاب وراءها وأكتشف بعدما أضاع طريقه أنها جنية ابنة ملك من ملوك الجن وقعت في حبه وأخذته معها إلى بر الجنون وعاش معها هناك بعيدًا عن عالم الإنس، وعن قصة صياد أخر أصاب غزالة ببندقيته في ساقها وعندما جاء ليأخذها كلمته وعرضت عليه أن تعطيه من الكنوز مايجعله ثريًا طوال عمره مقابل أن يتركها تذهب في حال سبيلها، وأخبره أن الغيلان والجنون لاتسكن في الصحراء فقط وأنما في كل مكان حتى في (ترهونة) فيما كان يسمى (بوادى الحمارة) المشهور، كان كل من يمر من ذلك الوادي لا يستطيع الخروج منه إلا بصعوبة بالغة، كانت الغولة تعترض طريق المارين من هناك وتطوي الأرض من تحت أقدامهم فلا يجدون إلى الخروج منه سبيل وعن كبار السن الذين كانت لديهم أرجل من ماعز كثيفة الشعر يعترضون طريق البشر ويسألون عن أشياء غريبة، وعن المرأة التي تحولت إلى كلبة سوداء لأنها سحرت زوجها وعن قصص كثيرة كانت قد أتخمت خياله وملأت قلبه خوفًا ورهبة من هذا العالم الغريب، لم يعد لديه متسع في قلبه ليفكر فيما حصل له

من أحداث وأدرك أن هذا العالم كبير جدًا أكبر من أحزانه وذكرياته في (ترهونة) وفيه من المصائب مايشيب لها رأس الرضيع، بمجرد أن تحركت القافلة في طريق العودة إلى الشمال وأنبلج الصباح حتى هبت عاصفة هوجاء فجأة وكأنها كانت تنتظر تحركهم، كانت عاصفة من الغبار الذي يحجب الرؤية ويحيل الدنيا بأكملها إلى لون أصفر مميت تملأ العيون والأفواه بذرات الغبار الدقيقة، كانت الرؤية منعدمة تمامًا فأضطر الشيخ علي للتوقف حتى تمر العاصفة بسلام ولكي لا تضيع علامات الطريق التي يهتدون بها فمكثوا ليومٍ كامل حتى هبط الظلام منكبين على وجوههم والدعوات تتصاعد من أفواههم وقلوبهم متضرعين إلى الله أن يكشف عنهم ماهم فيه من كرب إلى أن رحلت عنهم العاصفة الرملية الهوجاء بعد يومٍ من بدايتها وما أن أنقشع غبار العاصفة حتى تفاجأوا ببعض الجمال متجهة نحوهم مسرعة يمتطيها رجال ملثمون ذوو لباس أسود شاهرين بنادقهم في وجوههم وما أن أقتربوا حتى بدأوا بإطلاق عيارات نارية من بنادق الصيد، لقد كانوا قطاع الطرق الذين يطلق عليهم بالعامية أسم (الفلاقة) لقد جاءوا ليحصدوا رؤسهم وينهبوا أموالهم وقافلتهم، كانت أول رأس حصدوها هي رأس الشيخ علي لأنه كان في مقدمة القافلة، كان عمر يمشي وراءه فرأى أمام عينيه كيف مات الشيخ علي، كان باقي المرافقين وراءهم وكانوا يحملون بنادقهم فوق أكتافهم ولكنهم تفاجأوا فلم يستطيعوا صد هذا العدوان المفاجئ إلا واحدًا كان سريع الحركة فقتل واحدًا من

المهاجمين، أصيب عمر بذعر شديد لقد كان الرعب هذه المرة حقيقيًا ليس خيالًا،، كانت أول مرة في حياته يرى منظرًا بهذا السوء، رجالًا يموتون أمام عينيه، لقد بلغ به الرعب مبلغًا أفقده صوابه، كانت الأفكار تتزاحم في رأسه وتصطخب وأصيب بحالة أنفعال وهياج شديدين، كان يحاول الصراخ فلم يستطع، لقد خانه صوته فأغمي عليه من هول ما رأى ولم يدرك أن كان قد بقي على قيد الحياة أو أنه قد مات هو أيضًا، لقد كان منظرًا مرعبًا يصيب بالغثيان..

كان اللصوص قطاع الطرق يتجمعون في مجموعات صغيرة و يعترضون القوافل فينهبون منها الأموال والبضائع والجمال ولكنهم فيما سبق لم يكونوا بحاجة للقتل من أجل السرقة والنهب ولكن منذ أن أصبح أصحاب القوافل يستعينون بالرجال والسلاح لحماية قوافلهم كان من الضروري أن يبدأوا بالقتل أولًا ثم بعد ذلك ينهبوا ما جاءوا لأجله، لقد كان المصير المحتوم هو الموت إما أن تَقتل أو تُقتل فلا مجال للمساومة.

استيقظ عمر من إغماءه فوجد نفسه مكبلًا بحبال غليظة فوق بعيره، كان منظر الرؤوس التي تطايرت أمام عينيه قد أفقده القدرة على الكلام وأدرك بأنه قريب من الموت فراح يتلوا في نفسه بعض سور القرآن ويذكر الشهادتين من حين إلى أخر ويدعوا الله أن ينجيه مما هو فيه، لقد كان أفراد العصابة ملثمين وتظهرعيونهم

من تحت اللثام حمراء قاسية وكأنها عيون الشياطين مُلئت بالطمع والوحشية، لكنهم أبقوا على حياته لأنه مجرد صبي صغير كما سمع كبيرهم يقول، لقد جروا القافلة وراءهم جملًا وراء جمل وأتجهوا بها غربًا قاصدين أقصى الغرب الليبي إلى الحدود بين ليبيا والجزائر وكان عمر طيلة ثمانية أيام وهو فوق بعيره يفترسه الخوف والجوع والعطش إلا من بعض ما كان يقدمه إليه بعض أفراد العصابة من شربة ماء وتمرات قليلة لتبقيه على قيد الحياة وما أن وصلوا إلى قرية (عين إمناس) فجرًا حتى ألقوا به بعدما فكوا وثاقه أمام كوخ صغير بني من الطين في طرف القرية وأكملوا مسيرهم نحو الغرب إلى وسط الجزائر لعلهم يجدون من يغيرون عليه وينهبون قافلته، لقد حاول النهوض على قدميه المتهالكتين المرتعشتين أكثر من مرة ولكنه لم يفلح من أول مرة، نفض ما علق به من غبار واتجه إلى الكوخ بخطى ثقيلة يجر معه فجيعته بمن قتل لاسيما الشيخ علي، شعر بأنه سيكون بمأمن مجرد أن يصل إلى باب ذلك الكوخ، وفجأة فتح الباب وخرج منه رجل قصير القامة كبير الأنف أصلع الرأس إلا من جانبيه ذو لحية كثيفة وشارب حليق، كانت يداه طويلتان وكأنهما يدا حيوان وعيناه تُنبئان بالشر المستطير والخبث العميق ويوحي لون جلد وجهه المائل للاحتراق بأنه قاسي القلب لا يعرف الرحمة وكانت له آثار حروق على وجهه، كان عمره يناهز السبعين وتبدو صحته جيدة وبنيته شديدة وأسنانه بنية وكأنها أسنان تيس طاعنٌ في السن، أدرك

عمر أن إحساسه بالأمان لم يكن سوى مجرد وهم ولكن الرجل عندما تكلم أختلف الأمر كليًا، كان صوته أليفًا مريحًا وأشار إليه بيديه أن يقترب وعندما وصل إليه وضع كلتا يديه على كتفيه وسأله بلهفة شديدة ولهجة غريبة عنه فيها بعض الحدة،،

– من أنت أيها الصبي وماذا تفعل هنا، لقد سمعت قبل قليل صوت جلبة وأصوات إبل ولكن ظننت أنني أتوهم أو أحلم، ولكن قل لي من أنت ومن أين جئت، أوه يا إلهي يبدوعليك التعب والعطش هيا أدخل، وبمجرد أن دخل عمر إلى الكوخ شعر ببعض الاطمئنان وسمح لنفسه أن يُغمي عليه، لقد وصل إلى بر الأمان أخيرًا، لقد نام في ذلك اليوم منذ أن سقط مغشيًا عليه فجرًا إلى قرابة غروب الشمس، كان يحلم بأبيه ينادي عليه من بعيد، أنهض ياعمر أنهض، فتح عينيه فوجد ذلك الرجل يوكزه بأصبعه على كتفه الأيمن ويأمره بالنهوض

– استيقظ أيها الفتى كفاك نومًا، ودون أن يعطيه فرصة حتى لكي يفتح عينيه ألقى عليه وابلًا من الأسئلة، من أنت؟

ماأسمك؟

ولد من انت؟

ما الذي أوصلك إلى هنا؟

كانت معدته تقرقر وتصدر أصواتًا تُنبئ بجوع رهيب وبات يجول بنظره بحثًا عن مصدر تلك الرائحة الزكية فوقع ناظره على

إناء تفوح منه رائحة الدقيق المطبوخ في الماء واللحم في المرق، كاد أن ينطلق إليه كالسهم ولكن خجله منعه من ذلك ونظر إلى عيني الرجل وكأنه يستجدي أن يأكل ثم سيجيب على كل أسئلته، بدأ يتحدث وهو يأكل (الفتات) مع الشيخ عبد الرزاق، الذي كان عبارة عن خبز مفتت في المرق واللحم، لقد أخبره بكل شيء منذ خروجه من (ترهونة) إلى وصوله إلى المكان الذي لا يعرفه بهذه الطريقة وتعجب الرجل من هذه القصة ولكنه طمأنه أنه قد أصبح بخير ولن يصيبه مكروه بعد الآن وأن الله قد رسم له مستقبلًا مزهرًا، قال عمرفي نفسه متهكمًا... مزهرًا جدًا.....

– أسمع يافتى أنت خرجت من بلدك برفقة الشيخ علي رحمه الله تبتغي الرزق والعلم أليس كذلك؟

ستجد كل هذا عندي سأعلمك كل شيء فأنا كما ترى وحيد لا زوجة ولا أولاد ستكون أنت أبنًا لي سوف أعلمك صنعة تأكل منها رزقك وتعينني على نوائب الدهر، أنا كما ترى قد أصبحت عجوزًا كبيرًا أحتاج إلى من يساعدني إن الله قد أرسلك الي رحمة من السماء، إلا إذا أردت أن تعود إلى بلدك فهذا شأنك وأستطيع أن أتدبر أمر عودتك إلى ديارك، أنه خيارك وكما تريد، طأطأ عمر رأسه عند سماعه لهذا الكلام وقال في نفسه لعله خيرًا، وكان هنالك دائمًا غصة في قلبه لا يعرف لها سببا تلازمه على الدوام حتى في الأوقات القليلة التي يجب أن يكون فيها سعيدًا، لقد أخبره أن والديه قد توفيا ولم يعد بحاجة للعودة إلى (ترهونة).

كان الشيخ عبد الرزاق يعمل بناءًا، كان يفتخر أمام عمر بأنه من بنى معظم الاكواخ في (عين إمناس) كان يجلب الطين من بعض التلال القريبة على بغلته الهزيلة ويقوم بطحنه على رحا كبيرة تشبه معصرة الزيتون تدور حولها بغلته في دائرة مغلقة، ثم يمزجه بالماء ويجعل منه قوالب توضع فوق بعضها فيتكون الجدار بكل بساطة، ويجعل من جذوع النخل سقفًا للكوخ، مكونات بسيطة وماء وقليل من الصبر سوف تجعل منك بناءًا محترفًا، قال ذات مرة لعمر، وأخبره بأن عليه أن يسمع الكلام وأن يفتح عقله جيدًا كي يتعلم بسرعة وأن يأخذ عنه كل ما يلزم لكي يصبح بناءًا مثله ويحظى باحترام الناس لأنه يكسب رزقه من عرق جبينه، لم يكن أمام عمر خيار أخر فقد وجد نفسه أمام رجل غريب عنه يدعي أنه سيعلمه كل شيء وأن يعتني به ويجعله كولد له، لقد أدرك الآن الحكمة التي طالما سمع أباه يتفوه بها (على الإنسان أن يعيش كما يجد ليس كما يريد) أطلق العنان لنفسه وأصبح يحلم بأن يكون المستقبل أفضل من ماضيه القصير الكئيب، كانت حياته مع الشيخ عبد الرزاق أشبه بولد يعيش مع أبيه لقد تعلم منه كيف يعتمد على نفسه وكيف يجعل حزنه تحت قدميه وألا ينظر وراءه أبدًا، فالحياة قاسية مريعة وإن ترك نفسه لحزنه فإنه هالك لا محالة، ومع مرور الأيام الطويلة والليالي الكئيبة اعتاد على حياته الجديدة واعتادعلى مزاج أبيه الجديد القاسي الذي كان يوبخه على كل صغيرة وكبيرة دون رحمة حتى أنه ضربه ذات مرة ضربة على رأسه بعتلة من

حديد فجش بها جبهته وسال دمه وبقي أثرها سنين طويلة شاهدًا على قسوة الحياة التي عاناها، لقد كان عمر كثير الشرود غارقًا في أحلام يقظته التي وجد فيها ملاذا آمنًا لتخيلاته وما يأمل أن يكون عليه في المستقبل، فتارة يحلم بنفسه أصبح شيخًا جليلًا يتسابق الناس لتقبيل يديه الكريمتين وينادونه بسيدي عمر وتارة أخرى يرى نفسه مع ابنة خاله هنية في حلم جميل مخضبة يديها بالحناء ووشم أخضر داكن أسفل فمها الرقيق وعيناها الصفراوتان اللتان تنبئ بالحب والأمان، كان يرى نفسه في قمة الحلم دائمًا، كان يحاول الهروب من واقعه المؤلم الذي وجد نفسه فيه أقرب لعبد مملوك يعمل كما تعمل البغال مقابل الأكل والمأوى، لا يعرف إلا تنفيذ الأوامر والقول سمعًا وطاعة، إن مغامرته الأولى مع الشيخ علي وما تعرض له من خطف وخوف وتعريض نفسه للقتل جعلت في نفسه نزعة للركون والاستكانة وخوفًا عميقًا من التغيير والمغامرة، جعلته يميل إلى الهدوء والرضا بالقليل طالما أنه يجد لقمة يسقطها في جوفه ومكانٌ يأويه بالرغم من كل المنغصات التي فيه إلا أنه أفضل بكثير من مغامرة أخرى الله وحده يعلم ما ينتظره فيها من مفاجأت توجع القلوب وتكسر النفس، لم يكن يتوقع أن هذه الحياة بهذه القسوة، كان يجد متسعًا من الوقت لأحلامه عندما يغادر الشيخ عبد الرزاق الكوخ قاصدًا جلب الطين من بعض التلال القريبة، كان يغيب بالأيام في بعض الأحيان، كان بقاءه وحيدًا أشبه بنزهة في خاطره المتخم بالأحلام، نزهة جميلة

لا تنقطع إلا برجوع الشيخ عبد الرزاق بوجهه الكريه إلى القرية، كان يتمنى ألا يعود أبدًا ويتركه غارقًا في أحلامه وتأملاته، كان يأمل أن يخرج عليه ضبع يفترسه هو وبغلته الكريهة أو أن يلذغه ثعبان من أنفه الكبير فلا يجد دواء قريبًا لمصابه أو يخطفه الجن ويذهب به إلى بر الجنون ولا يعود منه أبدًا، ولكن الشيخ عبد الرزاق كان يعود دائما سالمًا معافى وكل آماله تخيب، كان يتمنى أن يتغير واقعه وينقلب رأسًا على عقب دون أن يكون هو سبب في ذلك ودون أدنى مغامرة أو محاولة للتغيير، لقد سئم الحياة مبكرًا جدًا وتمنى أن يموت لينهي كل هذا العناء، كانت اللذة الوحيدة هي في بقاءه وحيدًا، وكأن السعادة هي أن تبقى وحدك مع أحلامك وآمالك دون أن يقطع ذلك عنك أحد، لقد كان ينأى بنفسه بعيدًا حتى عمن هم في سنه، كان ينتظر بفارغ الصبر أن يغيب الشيخ عبد الرزاق عن الكوخ ليستمتع وحده مع هنية التي أصبحت مع مرور الوقت وطول البعد ومرارة الشوق هي الحبيبة المنشودة والأمل الذي يعيش لأجله، أدرك أنه لابد للإنسان من أمل يعيش من أجله ويستعين به على مشاق ومصائب الدنيا، بات وكأنه يريد أن يصبح ذلك الرجل الكامل من أجلها ويعود ذات يومٍ محملًا بالمال والهدايا ويبحث عنها ويخطبها لنفسه ويعيش في سلامٍ أبدي، لقد كان الحلم ينتهي بمجرد أن ينهي عادته السرية ويلوث سرواله الداخلي ثم يشعل سيجارة وينتهي كل شيء، كان الحلم بالزواج من فتاة جميلة هو الحلم الأول لكل من يبلغ الحلم

في ذلك الوقت، لا يحلم بسواه، أن تصبح غنيًا وتتزوج من فتاة جميلة ذلك كل شيء، لذلك فقط كانت جل الأحقاد وكل الحسد والجرائم إنما تقوم من أجل الحب والنساء، كان مجتمع يعج بالأحلام القصيرة والأحقاد الطويلة والحب الذي يتحول في كثير من الأحيان إلى كره شديد وحقد مرير ويكون الانتقام فيه إما بالقتل أو بالسحر والشعوذة.

***

لقد شب عمر وأكتسب مع مرور الوقت جسمًا مفتولًا بالعضلات من جراء العمل الشاق في مجال البناء وحباه الله وجهًا شديد الوسامة بعينين شديدتي السواد وشعرًا مجعدًا أشد سوادًا وقامة طويلة وأنفا مستقيم وخدين مدورين وبشرة سمراء تميل إلى الإحمرار وتناثر الشعر في وجهه راسمًا لحية وكأنها لم تخلق إلا له، كان وجهه يأسر كل من يراه، وجه يبعث على الوقار ويوحي بالصدق والطمأنينة ولم يكن يعكر صفو هذا الجمال إلا الجرح الذي كان في جبهته من جراء ضربة الشيخ عبد الرزاق ذات مرة، كانت تقاسيم وجهه مجتمعة تعطي شعورًا بأن صاحب هذا الوجه يستوجب الثقة العمياء، كانت الفتيات كثيرًا ما تغامزن عليه وحلمن به ونظرن إليه نظرة الحب والإعجاب، ولكن قلبه كان أسير حب قديم تغلغل في أعماق أعماقه فلم تكن في هذه الدنيا إلا فتاة واحدة أختصر فيها كل نساء الأرض "هنية" الفتاة

الشبح التي عاشت حياتين، حياة في طفولته البعيدة وحياة أخرى في خياله وكيانه وجعلته مقيد الأوصال وكأن قلبه دُق بوتد، لقد نقش على ذراعه الأيسر وشمٌ يوضح فيه صورتها بعينين كبيرتين وأنف دقيق وشعر متناثر مبعثر كأحلامه ومشاعره التي تتفاقم من حين إلى أخر وتكاد تقضي عليه، لقد أصبح مزاجه شرسًا سريع التأثر والانفعال والازدراء من جراء هذه القيود التي كان يعتقد أنه من الصعب عليه التخلص منها.

وفي يومٍ من تلك الأيام الطويلة الكئيبة عاد الشيخ عبد الرزاق من رحلته بعد يومٍ واحد من مغادرته ودخل الكوخ دون أن ينتبه إليه عمر وكأنه كانَ يقصد ألا يثير انتباهه فشعر عمر بارتباك شديد إذ كيف لم ينتبه إليه، كيف لو وجده في وضع محرج مع أحلامه وعاداته السيئة ولكن الله سلم هذه المرة، نظر إليه الشيخ نظرات مريبة وكأنه يراه لأول مرة بالرغم من أنه أمضى معه قرابة سبع سنوات من عمره ثم أشار إليه أن يجلس أمامه وبادره الحديث،

– أسمع أيها الفتى لقد وعدتك فيما سبق أنني سأعلمك كل شيء وها أنت ذا أصبحت بناءًا يعتمد عليه وتستطيع أن تكسب قوتك بعرق جبينك، أنا أعرف الشيخ علي الزنتاني رحمه الله وأسمع عن أخباره الشيء العجيب وأعرف أيضًا أنه كان وليًا صالحًا من أولياء الله وأن له كرامات كثيرة لا تُعد ولا تُحصى،

لقد كان صوفيًا حقيقيًا وهو من القلائل الذين تحصلوا على السر المقدس من أحد الأولياء الصالحين الذين تعلم على أيديهم بفضل مثابرته وحرصه على التعلم، ولكنه قد مات وأنت تعلم جيدًا أن الموت لا يستثني أحدًا فإذا جاءت ساعة المرء فإنه لا ينفعه ولاية ولا ينفعه صلاح، اسمع أيها الفتى إنك الآن أصبحت شابًا وعليك اتخاذ القرار المناسب من أجل حياتك ومستقبلك وإني سأُخبرك بأمور يعجز عقلك الملئ بالنساء والأوهام على أن يستوعبها الآن ولكنني سأبرُ بوعدي لك على أن أعلمك كل شيء وما قسوت عليك سابقًا إلا لكي تتعلم وتصبح رجلًا يُعتمدُ عليه في الشدائد، طأطأ عمر رأسه حياءًا وأحمر وجهه خجلا وعرف أن ما دفنه في أعماقه قد ظهر على ملامح وجهه وبات مفضوحًا ككتاب واضح العبارات، كان يحاول عبثًا أن ينظر في عيني الشيخ،

– أسمع أيها الشيطان، أني أعرف عنك أكثر مما تظن أنك تعرف عن نفسك، أني سعيدٌ أن يكون وجهك قادرًا على التعرق والخجل والإحمرار هههههه، إنك مخادع تلقي اللوم على الدنيا والحظ العاثر الذي أوصلك إلى هذا الحد المزري وتُظهر إنك على استعداد للتعلم والاستقامة، لا أخفيك سرًا أني منذ عرفتك شعرت بميل نحوك وقررت في نفسي أن أجعل منك رجلًا قويا ذا هيبة ووقار وكثير المال، سأحقق فيك أحلامي التي عجزتُ أن أحققها في نفسي، يا بني إن الحياة القاسية هي وحدها من تصنع الرجال، عليك أن تكون صلبًا و شجاعًا مقدامًا، وكما يقولون

عليك أن تكون ذئبًا والا أكلتك الذئاب، أن حياة الفقراء سيئة قاسية يابني، عليك أن تتخلص من كل شيء يجعلك حبيس نفسك، عليك أن تفك قيودك وتنطلق، إياك أن تكون عبدًا لأي شيء وخاصة النساء، فإن المرأة التي تُوقعك في شراكها مثل عنكبوت سامة تتسلط عليك وتُعمي عينيك عن باقي النساء الجميلات فلا يفوتك إنهن مثل الفاكهة المسحورة إذا تذوقت واحدة فلا قوة في الأرض تمنعك من تذوق أخرى، لاشيء يغري النساء مثل المال والذهب، حتى لو ذُبت حبًا وأحترقت أمامها بالنار فإن ذلك يشعرها بالمتعة والزهو ولكنه لايغريها، أن الحب وحده ليس فخًا كافيًا للنساء فإنهن يستطعن أن يتملصن منه بعد أن يردينك قتيلًا لأعينهن، إننا بحبهن نُشعرهن بالغرور وهذا مايجعلهن متفوقات علينا بكثير، والله، أقسم لك بسيدي عبد السلام، لو كان الشيخ علي حيًا لما قال لك غير هذا الكلام، عليك أن تفتح عقلك الصدأ لكي تفهم ما أقول لك فسأطلعك على أسرار سيشيب لها شعر حاجبيك وسوف ترتعد لها فرائصك، وأني ماقسوت عليك إلا لكي أعرف مدى قدرتك على التحمل والصبر، لكنني الآن متأكدٌ من أنك أصبحت بالجلد الكافي لأطلعك على أسراري وحقيقة ألأمر الذي كان الشيخ علي سيعلمك أياه إن كان حيًا، لقد كان الشيخ علي قطبًا من أقطاب هذا الكون، لقد منحه الله قدرة عجيبة للتصرف في هذه الدنيا كيفما يشاء، كان وليًا لله، لقد أتاه اليقين، وأصبح كما تعرف ويعرف الجميع أنه يطير في السماء ويمشي

على الماء وأنه باستطاعته أن يحول التراب إلى ذهب ولا يعجزه شيء فوق هذه الارض، وأني متأكدٌ بل على يقين أنه قد رأى فيك خليفة له، فعينيك هاتين تنبئ بذلك، ولكنك تعلم أن كل هذا العلم وهذه الكرامات لا تأتي بين عشية وضحاها، كان علينا أن نتيقن إن كان بمقدورك أن تكون ذلك الولي الذي سيرث هذا العلم، أنا أرى الشيخ علي في منامي كل ليلة وهو من يملي علي ماذا أفعل معك، فلا تتعجب لقد وصلت إلى أيدي أمينة، لقد كان الشيخ علي مكشوف الغيب انكشافًا لا يبقى معه ريب، كان لديه علم الحضور الإلهي والتجليات الربانية والأنوار المقدسة، لقد تجلت أنوار الله عليه من غير واسطة واتصلت روحه بالله من غير حجاب بعدما امتلأ قلبه بنور اليقين، لقد رأى فيك المستقبل وما ستكون عليه من هيبة ووقار، أنت الولي القادم ياعمر، لقد أرسلك في حلمي ذات ليلة وأمرني بانتظارك وتعليمك والاعتناء بك، لقد كان يعلم أنه سيموت في ذاك اليوم، لقد منع اللصوص من قتلك وجعلهم يأتون بك إلى هنا، أنه يتحكم بالكون حتى بعد مماته، وما قسوت عليك إلا لكي تتعلم وتكون بالجلد الكافي لتتحمل هذه الأمانة التي تركها لك الشيخ علي قدس الله سره، لن أقول رحمه الله لأنه مرحوم بلا أدنى شك، بل أنه يرسل الرحمات من عنده الآن على بني البشر أجمعين، لقد كان صاحب علم خصه الله به دون غيره، إن الله لم يجعل الخلد لأحد كما قال لنبيه (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) باستثناء الخضر صاحب موسى فإنه يموت ثم يحييه

الله لبعض شؤونه، ولو أنه جعل فيها بشرًا خالدين لما مات الشيخ علي أبدًا،، أه يا ولدي لو أحكي لك عن كرامات الشيوخ والأولياء أحتاج لسنين وأنا أتحدث، هل تعلم أن أحد الأولياء سابقًا كان يجوب الطرقات وثيابه رثة وممزقة فتبعه بعض الصبية وبدأوا يسخرون منه ويضحكون عليه ويرمونه بالحجارة فنادى ملك الموت وقال له إذا لم تقبض أرواحهم الآن لأعزلنك من ديوان الملائكة فأصبحوا موتى جميعًا في لحظتها، لقد كانوا يتحكمون في كل شيء، وولي أخر مكث سبع سنين لم يأكل الطعام ولم يشرب قطرة ماء واحدة ولم يصبه أي مكروه وكان يذهب إلى مدينة الرسول وكانت مكة تأتي إليه هناك وتطوف عليه بدل أن يطوف عليها، هيه ياعمر، عليك أن تشكر الشيخ علي لأنه أختارك للولاية دون غيرك، لقد أرسلني الشيخ علي إليك كما أرسل الله الخضر إلى موسى، لقد سأل موسى معلمه وتجرأ عليه ولم يطق صبرًا، عليك بالسمع والطاعة ولا تسأل عن شيء أبدًا حتى أحدث لك منه خبرا حتى لو أمرتك بأن تقطع رأسك فلا تتردد، إني يا عمر أعرف عنك أكثر مما تظن أنك تعرف عن نفسك، هل تحب هنية ابنة خالك وهل تريد الزواج بها، هل تريد أن تجتمع بأخيك عبد الله وتحمي أختك مريم؟

هههههه وضحك ضحكات أظهرت أسنانه البنية التي تشبه اسنان التيس....

أصاب عمر الذهول مما سمع ولم يكن عقله قادرًا على استيعاب كل ما قيل وتساءل في نفسه كيف عرف الشيخ عبد الرزاق كل هذه الأمور الدقيقة عنه، ولكن فكرة الولاية وأنه سيصبح شيخًا وليًا استهوته ودغدغت أعماقه وأحس بأنه سيودع حياة البؤس والشقاء إلى غير رجعة،

– لكن ياسيدي كيف عرفت كل هذا؟

– ألم أقل لك إني الخضر وأعلم كل شيء، ثم إياك أن تسأل عن أي شيء حتى أخبرك أنا به، إن أردت الذهاب الآن فها هو الباب أمامك يستطيع الجمل أن يخرج منه ولكنك ستندم طوال حياتك على أنك أضعت هذه الفرصة، اسمع أيها الفتى إن هذا الوجه الجميل الذي تحمله وهاتين العينين القابلتين للتصديق سوف يدران عليك الكثير من المال والكثير من النساء، هل كنت تظن أنني أمكث بالأيام خارج هذا الكوخ من أجل حفنة من الطين لكي أبني بها بيوت لهولاء الأغبياء، إنني أبحث عن الذهب المدفون في باطن الأرض وعن المجوهرات التي تلهب العيون ببريقها التي ستجعل منك ثريًا تمشي فوق السحاب، منذ الغد ستكون رفيقي في كل رحلاتي وسوف ترى بأم عينك ما لا يُصدق..

لقد كان الشيخ عبد الرزاق قادرًا على إقناع أي شخص أمامه بوجهة نظره وبفكرته مهما كانت غريبة، خاصة عندما يغير نبرة صوته ويرفع حاجبيه متظاهرًا بالطيبة.

لقد كان الشيخ عبد الرزاق أحد أبرع صائدي الكنوز في (عين إمناس) ولم يكن أحد يعلم عنه هذا، لقد كان سرًا يحتفظ به لنفسه ولم يُظهره لأحد، لقد كان الحفر من صميم عمله متظاهرًا بأنه يجمع الطين من أجل البناء ولكن حرفته المخفية هي البحث عن الكنوز المدفونة والتي كانت محروسة بجنود غير مرئيين من الجن والعفاريت، لقد كان يقوم ببعض الطقوس لاستخراج هذه الكنوز وتقديم القرابين للعفاريت والتقرب بها إليهم كي يسمحوا له بأخذ ما يحرسون، لقد أمضى قرابة الخمسين سنة من عمره وهو على هذه الحال ولكنه لم يقم في أي يوم من الأيام بالتقاط ولو قطعة صغيرة من الذهب، كان شيء واحد فقط هو ما يعرقل ذلك الأمر دائمًا، فمثلًا عندما يتوفر نوع معين من البخور فإنه لن يجدي نفعًا إلا بنوع أخر ويكون العثور عليه أشبه بالمستحيل، طالما بحث عن الزئبق الأحمر والكبريت الأصفر الروحاني (أوشجرة اللوبان الذكر) التي تجعل من الشياطين خاتمًا في الأصبع كما كانت للنبي سليمان، لقد أهدر سنين عمره في البحث عن الوهم ولكنه لم يكن يعرف اليأس، لقد أخبر عمر أن الحروق التي في وجهه هي من جراء هجوم أحد الجنون عليه ذات مرة بعد أن كاد أن يقتله وكيف أنه نجى بأعجوبة بعد إن مد يده فى إحدى المغارات ليأخذ جرة مليئة بالذهب والجواهر، لقد كان رجلا ذا إرادة من حديد لا يمل ولا يعرف كيف يتوقف، كان خيال عمر قد التهب مما كان يسمعه من الشيخ عبد الرزاق عن حجم الكنوز المدفونة تحت التلال

والجبال منذ آلاف السنين والتي تعود إلى الماضي السحيق إلى شعوب عاشت في هذه الأرض منذ أمد بعيد، أخبره أن الجن والعفاريت تستولي على هذه الكنوز بعد أربعين سنة من دفنها، لقد أقنع عمر وتفاخر بنفسه أمامه بأنه قادر على أخراج الكنوز وضرب الجن على مؤخراتهم إن حاولوا إيذاءه مرة أخرى، أغراه بالتمتع بهذا الملك الكبير والجاه العظيم، فقط يجب أن تتوفرلدينا بعض الأشياء البسيطة الغريبة التي يطلبها هولاء العفاريت الأغبياء كي نقايضها بالكنوز المدفونة، فهم ليسوا بحاجة إليها كما هو الحال عندنا نحن البشر، إننا نحتاج إليها بشدة ولكن كل هذا يحتاج إلى المال الكثير،

– غدًا سأريك ما لم تراه عيناك من قبل وسأخبرك بما يتوجب علينا فعله.

وفي صباح الغد بعد ذلك اليوم انطلق الشيخ عبد الرزاق وبصحبته عمر والبغلة، واضعين مؤنتهم فوقها، توجها إلى التلال حيث كان الشيخ عبد الرزاق يذهب وحيدًا متظاهرًا انه يبحث عن الطين، استغرق منهم المسير قرابة نصف النهار، خيما عند قدم الجبل ولكن الشيخ عبد الرزاق لن يقوم بأي شيء من طقوسه إلا بعد هبوط الظلام، أشعل نارًا كبيرة وألقى فيها بعض البخور وأمر عمر بأن ينظر إلى المغارة في وسط الجبل، وإذا به يرى عجبًا، حيث تلألأت المغارة ببريق يذهب الأبصار ويُظهر حجم الذهب

والكنوز التي بداخلها ورأى عمر بأم عينيه ما لا يصدق، ذُهل عقله من هذا المنظر الرهيب وأرتعدت قدماه وصاح بأعلى صوته حتى ردد صداه الجبل، فقد كان حجم الكنوز أكبر حتى من الحلم، ولكنه عندما صاح أختفى كل شيء وعاد المكان مظلمًا كما كان، ألتفت إليه الشيخ عبد الرزاق ونظر إليه نظرة توحي بالنصر، وقال له إن كل هذا سيكون لك وحدك دون غيرك، أنا كما ترى لم يعد في عمري بقدر ما مضى منها، عليك أن تستميت في الحصول على هذه الكنوز وإياك إياك أن تخبر أحدًا بما رأيت، إن كل هذا يحتاج لبعض الأشياء القليلة ولكن ثمنها غالٍ بعض الشيء، إن أول شيء علينا فعله أن نجمع الأموال للحصول على مايريده أسياد هذه المغارة وهناك مغارات أخرى فيها أضعاف ما رايت.

بات عمر ليلته تلك مع الشيخ عبد الرزاق في العراء، بات يحلم بحجم الكنوز التي رآها بأم عينيه بما لايجعل مجالًا للشك أن يكون ذلك حلمًا أو وهمًا، عقد العزم بينه وبين نفسه على أنه سيعمل على إمتلاك تلك الكنوز مهما كلفه ذلك من وقت وجهد، مهما كلف من أي شيء، مهما طلب منه الشيخ عبد الرزاق أن يفعل فلن يتردد في أي شيء، أحس أن أيام الفقر قد ولت إلى غير رجعة وأنها فرصته الوحيدة لكي يصبح ثريًا وصاحب جاه ومال، لقد كان ينظر إلى السماء المرصعة بالنجوم ولكنه لايراها، كانت تلهب مشاعره سابقًا ولكنها الآن ينظر باتجاهها ولكنه لايراها، لقد جعلت الكنوز بقعة في عينيه مثل بقعة الشمس عند الظهيرة،

أصبحت حائلًا بينه وبينما يرى في الواقع، لقد احتلت كيانه وأنسته أحزانه وحبه وأهله، لقد أصبح مجرد عينين لا يرى غير تلك المغارة والكنوز المدفونة فيها، لقد أدرك الشيخ عبد الرزاق ما أصاب عمر من ذهول وصدمة فلم يقطع عليه أحلامه ولو بكلمة واحدة، كان على يقين أنه أوقعه في الفخ وأن أحلامه وأوهامه سوف تتكفل بباقي المهمة وتزيده غرقًا وتُهيل عليه التراب حتى تُغرقه في أوحال نفسه فلا سبيل بعدها للنجاة.

في صباح اليوم التالي من تلك الليلة تغيرت معاملة الشيخ عبد الرزاق لعمر وأصبح يناديه بسيدى عمر،

– أسمع يا شيخ عمر أنت الآن سيد الأسياد، أنت المبروك القادم في الأزمنة القادمة إن أختيار الشيخ علي لك لتكون خليفته في الولاية لم يكن عبثًا ولم يكن من أجل الكنوز والجاه فقط، سوف تعمل من الآن فصاعدًا من أجل الناس، سوف تعالج الناس من سحر الجن السفلية بمساعدة الجن العلوية هناك أمورٌ يجب عليك فعلها، سوف تصبح سيدًا لبعض الجن العلوية وهناك طقوس عليك فعلها وإن دخل الشك إلى قلبك فتذكر دائمًا الولي الصالح الخضر صاحب موسى عليه السلام لقد فعل أشياء تُعد جرائم بشعة، لقد قتل صبيًا وحيدًا لوالديه وأغرق سفينة لمساكين يعملون في البحر وفعل خيرًا وبنى جدارًا لأهل قرية لم يعطوه حتى لقمة يسقطها في جوفه، كل أمر أخبرك به يجب عليك أن تفعله

مهما كان غريبًا وعجيبًا، أنت الآن صاحب الولاية وصاحب السر المقدس، لم تعد مثل البشر العاديين، لقد سقطت عنك الصلاة والصوم منذ هذه اللحظة لم تعد بحاجة لكل هذا، لقد رأيت اليقين بأم عينيك، إن الله قال في القرآن (أعبد ربك حتى يأتيك اليقين) بعدها افعل ما تشاء، طالما أن عينيك كانتا قادرتين على رؤية ما تخفي المغارات بكل وضوح فذلك يقين من الله لا شك فيه، لقد جربت ذلك مع الكثير من الناس ولكنهم لم يكونوا قادرين على رؤية ما رأيت، لقد كان هذا أخر امتحان لك ياسيدى عمر، كان عليا أن أتأكد من أن عينيك تستطيعان رؤية ما وراء الأشياء وها أنت ذا كُشف عنك الغطاء فبصرك اليوم حديد، يا إلهي كم أنا سعيد بولادتك أيها المبروك الصالح وكم سيكون الشيخ علي مرتاحًا في علياءه، أنه يراك الآن ويرسل عليك رحماته وبركاته،

سنعود للقرية وننادي في الناس ونبشرهم بولادتك، من المؤكد أنك سمعت عن الأسياد الصالحين من أمثال سيدى عبد السلام الأسمر وسيدى معمر في مناطق الشمال ولكننا هنا في الصحراء لا يوجد عندنا صالحين يحمون هذا الفضاء الشاسع، ستكون أنت حامي الحمى ياشيخ عمر، وبعد عمر طويل سيكون لك مقام مثل مقام الأولياء الصالحين وستحمى الصحراء بحماك من ملكوتك الأعلى.. يجب عليك أن تتعلم السحر لكي تمتلك القوة لفعل ماتريد ولن تتعلم السحر حتى توحي للشيطان بأنك كفرت بالله، سيطلب منك بعض الأشياء مثل الصلاة بالناس من

غير وضوء أو الوضوء ببولك أو البول على صحيفة من القرآن لكي تثبت له أنك على استعداد لفعل أي شيء، أو أن تقتل شخصًا كما فعل الخضر، عليك أن تكون على استعداد تام لتلبية هذه الأوامر وبعد امتلاكك لهذه القوة سوف تُفيد بها الناس في علاجهم من كل مرض وفك شر السحر الأسود عنهم وربما ستفعل سحرًا لشخص ما لأنه يستحق ذلك، كل هذه أمور ستتعلمها مع مرور الوقت، سوف نرجع الآن إلى القرية ونبني لك مكان يليق بمقامك العلي ويتسع لمن يقصدك طالبًا للعلاج.

لقد مر هذا الكلام على أذنيه دون أن يركز في تفاصيله ودون أن يدخل عقله وكأنه لايريد لعقله أن يعمل، كان عقله متخمًا بالأحلام والأوهام والنساء، ولم يعد قادرًا على التفكير ولا التمييز، انسلخ من إرادته وسلم أقداره للشيخ عبد الرزاق واندفع وراءه بكل ما أوتي من قوة، تذكر بجزء بسيط من ذاكرته ذلك اليوم الذي جاء فيه الشيخ علي إلى بيتهم وكيف تكلم مع ذلك الجني في جسد أخيه بشير، أقنع نفسه أنه لابد للأمر أن يكون كذلك، هذه الطقوس وهذه الأشياء الغريبة من المؤكد أنها ستفضي في النهاية إلى ما يصبو إليه من علم وقوة، أخيرًا سيطير في السماء ويمشي على الماء ويفعل ما يحلو له..

خرج الشيخ عبد الرزاق ونادى في الناس وهو يصيح لقد ولد المبروك، لقد جاءكم الصالح رحمة من عند الله، لقد ظهرت على يديه بعض الكرامات وأنه سيقوم بمعالجة كل مسحور وكل

مكروب ومريض، وأذاع في الناس أنه سيفعل ذلك مجانًا لوجه الله تعالى ولكن من أراد أن يعطي شيئًا لله فإن الشيخ لن يرد عطيته وتكون له ذُخرًا يوم القيامة، لقد قام الشيخ عبد الرزاق بتوسيع كوخه ليكون له براحًا أوسع وجعل له سياجًا وغطى أحد زواياه بالجريد ليجد الناس مكان ينتظرون فيه دورهم للدخول على الشيخ عمر ومع مرور الأيام بات الناس يتزاحمون على بابه ويحملون له المال والهدايا، لقد رضي الشيخ عبد الرزاق أن يكون مساعدًا لعمر يقوم باستقبال الناس عند الباب ويُخبرهم بما يتوجب عليهم فعله عند الجلوس بين يدي الشيخ وفي حضرته المقدسة، لقد كان يوصي الناس بكل حذر وحزم أن يتعاملوا مع الشيخ بكل وقار وكان يحكي لهم عن قدراته العجيبة وكيف أنه يشفي من كل مرض، لقد أخبرهم ذات مرة أن عجوزًا عقيما تجاوز عمرها الخمسين سنة جاءت للشيخ وأعطاها علاجًا ناجعًا لم تلبث إلا قليلا حتى صارت حاملًا وهى الآن تنتظر مولدها بكل فرح وسرور، لقد أرسله الله رحمة بكم وعليكم أن تشكروا نعمة الله ولا تعصوا للشيخ أمرًا، وأخبرهم أيضًا عن رجل أصابه البرص منذ سنين بعيدة جاء للشيخ وتفل ببصاقه المبارك على وجهه فأضحى أجمل من ذي قبل، قال لهم... هيه لو أحكي لكم على كراماته أريد سنين وأنا أتحدث ولن أكمل، لقد فجر بئر ماء مهجورة منذ أمد بعيد وأعاد إليها الماء بكل سهولة،، وكان كثيرًا من الأحيان يؤخر الناس عن الدخول إلى الشيخ عمر بحجة أن الشيخ ذهب إلى أرض الحجاز ليعتمر

أو ليحج، وعند سؤاله عن الطريقة التي ذهب بها الشيخ يرد بأية من القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ لا تسألوني عن شيء فأنا ممنوع من الإفصاح، لقد جعل الشيخ عبد الرزاق من عمر كائنًا أسطوريًا بكثرة ما يتحدث عنه ويقسم لهم بالله أن ما يقوله قد رأه بأم عينيه، كان يؤخرهم بحجة أن لديه ضيوف من الأولياء الصالحين ولو دخل عليهم أحد لاحترق من نور وجوههم مجتمعين، لقد كان يقول عنه أشياء يصعب على العقل تصديقها ولكنها كانت تلاقي أذانًا صاغية وقلوبًا مصدقة، كان الناس يرددون مايسمعون ويزيدون عليه الكثير والكثير...

كان عمر قد أعجبه ما أصبح عليه من تهافت الناس على تقبيل يديه وطلب الشفاء من هاتين اليدين المباركتين، كان قد جعل لنفسه متكئًا يشبه العرش يقابل باب الكوخ أضفى عليه الكثير من الوقار وكان وجهه الوسيم وعيناه السوداوتان قد زادتا من تصديق الناس إليه، فوجه مثل هذا الوجه لايمكن له أن يكون كاذبًا كما كان يتردد بين الناس، لقد فُتِنوا به أشد الفتنة، لقد أمتلأ صندوق الخشب الذي وضعه أمامه بالذهب والحُلي والهدايا الثمينة، لم يكن يطلب شيئًا من الناس ولكنهم كانوا يضعون أثمن أشياءهم عن طيب خاطر طلبًا للرضا والبركات،،

بفعل السحر الذي تعلمه كان يدرك من خلال ما يمليه عليه الجني كل خفايا الجالس أمامه بعد أن يسأله عن أسمه وأسم أمه، كان يدرك إن كان مسحورًا أو يعاني من مرضٍ معين ومن خلال

تشخيصه للعلة يصرف دواءً معينًا ودائمًا ما يكون أما بجلد حرباء مملح أو بدم ديك مذبوح أو شعيرات من ماعز سوداء تخلط بزيت عتيق ويدهن بها المريض من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، كان كثيرًا ما يشيرعليه الجني بمكان السحر فيذهب لأخراجه ويأمر بأحد الذكور بالبول عليه، كان دائمًا ما يردد (ببول الذكر يبطل السحر)، لقد كان نجسًا في كل تعاملاته وعلاجاته التي يدعيها ونجسًا في لباسه ورائحته التي كانت خليطًا بشتى أنواع البخور والزيوت، في بداية مشواره هذا كشيخ معالج كان شديد الوقار والهيبة حتى كاد أن يصدق نفسه أنه جُبل على هذا الوقار، ولكنه مع مرور الوقت وحجم الثقة التي أكتسبها من توقير الناس وتصديقهم له بات يرى نفسه من طينة أخرى غير طينتهم وأمتلأ قلبه بالغرور والكبر، بات ينظر إلى المحيطين به على أنهم أقل منه حجمًا بل وأقل وسامة، كلهم يعتريهم الخطأ في خلقتهم و وجوههم، لقد كانوا يمدحونه إلى درجة تجعله يشعر ببعض الخجل أحيانًا وكانوا يضيفون عليه أشياء لم تكن فيه أصلًا، لقد أصابه الملل مما هو فيه وأصبحت رغباته تطفو على سطح قلبه، لقد كان يرى أجمل النساء يترددن عليه دون هوادة، لقد كان جُل زبائنه من النساء ولكنه بسبب وقاره المزعوم لم يكن يستطع أن يتغزل حتى مجرد الغزل في إحداهن، كان هذا الأمر يصيبه بالإحباط الشديد، إذ كيف له أن يكون شيخًا يأمر فيُطاع وهو لايزال يمارس عادته الصبيانية السيئة برغم ما يدعيه من وقار، لبث على هذه الحالة لبعض الوقت، ولكن

الشيطان لم يتركه يعاني كثيرًا لقد أوحى إليه بخدعة بارعة الذكاء، لقد أمره أن يربط خيطًا طويلًا أمام الداخلين إليه بين جانب الحائط والجانب الأخر وأن يعلق عليه بعض الملابس والعباءات وحتى الأشياء الداخلية التي تخص النساء ومن القلائد والخلاخيل، وعند دخول إحداهن إليه وإذا كانت جميلة وأعجبته يصيح في وجهها تستووووور، ويقول لها أنزعي العباءة والوشاح فإن كانت ممن يسمعن ويطيعن الأوامر دون تردد ولا تبالي أن تقف عارية أمام الغرباء فإن أول شيء سوف تبدأ به هو نزع عباءتها ووشاحها الذين ترتديهما ويصيح حتى يجردها من ملابسها تمامًا ويأمرها بالاقتراب والجلوس بجواره ثم يأمرها بأن تستنشق بعض الأبخرة التي تصيب بالغثيان وبعد ذلك يفعل بها مايشاء من الزنى وإذا أستيقظت ووجدت نفسها في هذا الوضع يقول لها أن الجني أبى إلا يخرج إلا من بين فخديك، إياك أن تظني بي سوءًا، وإن أمر أحدى النساء بنزع ملابسها وعباءتها وأبت ذلك وصاحت في وجهه مغاضبة فإنه في هذه الحالة سيقول لها، معاذ الله يا ابنتى، معاذ الله، انزعى العباءة من على هذا الحبل كي أراك جيدًا فأنها تحجب الرؤية عنى، وبهذا يكون له مبرر جاهز للواتي يأبين نزع عباءتهن ومن ثم يعتذرن له عن سوء الظن به ويطلبن منه المعذرة والصفح وإلا يرسل عليهن جنيًا يقسم ظهورهن، ولكن في حقيقة الأمر أن ما خطط له من حيل لم تكن لتنطلي على بعض النساء، لقد كُن يأتين إليه مصحوبات برغباتهن الجنسية وتخبر إحداهن

الأخرى فيأتين إليه طلبًا للمضاجعة ولا لشيء أخر لقد كان شيخًا وسيمًا مفتول العضلات، كان يظن أنه الأذكى ولكن ليس على بعض النساء، لقد كثرت عليه الأقاويل وأصبحت سمعته محل اتهام ولكن لا أحد يجزم أنه قد رأى شيئًا بعينه أو لاحظ شيئًا مريبًا عليه، كان له أتباع يستميتون في الدفاع عنه وعن سمعته إلى أبعد الحدود ويتطوعون لخدمته في أي شيئًا يطلبه، لقد أصبح شيطان بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لقد ملك كل شيء، المال والنساء والاحترام ولكنه فقد نفسه وإحساسه بالمتعة والراحة، لم يكن في بداية الأمر يشعر بتأنيب الضمير لأنه كان يظن أنه على صواب ولكن مع مرور الوقت أدرك الفخ الذي أوقعه فيه الشيخ عبد الرزاق لكنه لم يعد يستطع الرجوع الآن ولا يريد الرجوع أصلا، كان يعرف أن الشيطان يغريه بالاستمرارفي هذا الأمر وكان يستمتع بذلك جدًا، لقد كان يخاف من رجل واحدًا فقط في القرية، رجل ملأ قلبه رعبًا ورهبة، الشيخ محمد إمام المسجد، لقد كان الشيخ مُحمد أسود اللون قصير القامة صغير الحجم ونظراته حادة تصيبه بالرعب، كانت له لحية بيضاء حاطته بوقار مرعب وبالرغم من شدة سواد بشرته كان وجهه وكأنه يُضِيء بنورٍ خافت، كان كلما مر أمام عمر يرمقه بنظرات تصيبه بالرعب تكاد ترديه أرضًا ويهز رأسه مبديًا احتقاره له ويبصق على الأرض ويمضي دون كلام.. لقد كان يحذر الناس في خطبة كل جمعة من الذهاب إلى الساحر الكذاب، كان يخبرهم أن ما تسمونه زورًا وبهتانًا بالشيخ عمرما

هو في حقيقة أمره سوى ساحرٍ كذاب يأكل أموال الناس بالباطل، وأن ذلك كان محرمًا على من يدعون أنهم من المسلمين، كان كثيرًا ما يقول لهم.... ستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله، لكنه لم يكن يلقي أذانًا صاغية وكثيرًا ما اتهمه بعض الأهالي بالغيرة والحسد من علم الشيخ عمر وقدرته على علاج السحر وما حباه الله به من قدرات خارقة، كان يزور عمر شعور بالندم من حين إلى أخر ويتمنى عندما يراه أن يركض نحوه ويقبل قدميه ويحضنه ويبكي بحرقة ويعترف له بكل ما فعل ولكنه لم يجرؤ حتى أن يتخيل نفسه في هذا الموقف أبدًا..... كان يرتعد أمامه ولا يجرؤ على رفع عينيه في حضرته حياءًا ورهبة، ويوحي إلى القريبين منه أنه متسامح مع الشيخ محمد لكبر سنه ولا يلقي له بالًا ولا يعبأ به أصلًا وأن بمقدوره أن يرسل عليه جني يكسر له رقبته في لمح البصر... وهو في حقيقة شعوره يخافه مثلما كان يخاف أباه صغيرًا..

لقد أصبح الرفيق الدائم للشيخ عبد الرزاق في كل صولاته وجولاته للبحث عن الكنوز وعن أشياء تعينهم في ذلك، كان قد تجرد من كل شيء وأصبح أسيرًا للكنوز والحلم بالجاه والغنى أكثر فأكثر وكأنه تحدى بينه وبين نفسه، فكثيرًا ما غامر بحياته من أجل ذلك فدخل إلى الكهوف الخالية ونزل إلى وديان سحيقة لا قرار لها وسافر عبر الصحراء الكبرى إلى بلاد المغرب وإلى الأدغال الإفريقية الوعرة وشرقًا إلى اليمن وبلاد الأحباش، كان يعود إلى (عين إمناس) فقط ليجمع المال من الناس المتهافتين

عليه للعلاج ومن ثم يعود إلى السفر بحثًا عن كنز أو بخور معين يُمليه عليه الجني من حراس الكنوز، لقد أمضى سنين من عمره بحثًا عن الوهم إلى أن جاء ذلك اليوم الذي مرض فيه الشيخ عبد الرزاق وشارف على الموت ولم يعد قادرًا على الحركة إلا بصعوبة بالغة، لقد أوصاه كفرًا بأن يدعهم يصلون عليه بعد موته كالمجانين وأن يضعوه في صدع من الأرض، قال له... ويزعمون أنني سأقابل الملكين في قبري، دعهم يفعلون ما يشاءون ولكن عند مغيب الشمس عليك أن تُخرج جثتي من القبر وتحرقها، فنحن المقدسون لايجب أن ندفن في الأرض بهذه الطريقة المهينة مثل بقية البشر، أحرق جثتي ودعني أصعد إلى الملكوت الأعلى كدخان لأصبح بعد ذلك ملكًا يرسل عليك رحماته من السماء، أوصاه أيضًا بطقوس الرقص على النار بأن يجمع الناس في ليلة اكتمال القمرمن كل شهر إذا أمكن، في حضرة عظيمة تذبح فيها القرابين للأسياد من الجن والأولياء الصالحين لكي تتمثل روح الشيخ علي فيه ويُملي عليه ما يفعل، حتى تكون له حظوة عندهم، لقد أصبح الأكثر خبرة بعد موت الشيخ عبد الرزاق وترأس عصبة من الرجال ممن خُطفت عقولهم بما سمعوا من حجم الكنوز والذهب المدفونة في أعماق الأرض، لقد أختلط عليه الأمر وأشتعل رأسه شيبًا ولم يبلغ الثلاثين من عمره وراح يلهث وراء الثراء والغنى الفاحش ولم يكن يعلم أنه يزداد فقرًا يومًا بعد يوم.

فى أحدى سفراته إلى وسط أفريقيا أحضرمعه نوعًا نادرًا

من البخور، لقد دفع فيه كل مايملك، كانت له رائحة زكية وكان يصيب بالغثيان والهلوسة لمجرد استنشاقه، وفي إحدى محاولاته لاستخراج كنز مدفون في أحد الكهوف هو وأتباعه أشعل نارًا ووضع فيها بعض البخور ممزوجًا بأنواع أخرى وراح يتلوا بعض تعاويذه وطلاسمه التي تعلمها من الشيخ عبد الرزاق فشعر بالغثيان وأُغمى عليه فتراءى له في غيبوبته شيخ جليل ذو وقار رهيب، كانت عباءته شديدة البياض ولحيته كثيفة بيضاء ويشبه في ملامحه الشيخ علي إلى حد بعيد، أخبره أن مايقوم به لايمكنه أن يشق له الأرض ويخرج له حتى ولو قطعة صغيرة من الذهب، لقد أخبره أن عليه أن تكون له آذانٌ صاغية لكي يعلمه ما يجب عليه فعله وأن ماسيقوله له يجب أن يبقى سرًا لا يجوز الإفصاح عنه لأي مخلوق فوق هذه الأرض، وإلا لا يلومن إلا نفسه، قال له يتوجب عليك أن تحضر عنز عذراء سوداء اللون تملك ثلاث شعرات بيضاء في رأسها ولم يعتليها أي تيس ويكون عمرها سبعة أشهر وأن تعود إلى هذه المغارة عند اكتمال القمر وأن تذبحها باسم الملكة (شمس القراميد) ابنة (الملك ميمون الأبيض) فهي من تملك هذه المغارة بما فيها من كنوز، وعليك أيضًا أن تشعل نارًا كبيرة ثم تطرحها أرضًا وترقص عليها حافي القدمين حتى منتصف الليل وعليك أن تنادي ثلاث مرات، يا أسياد الكون، يا أسياد الكون، يا أسياد الكون شقوا لنا الأرض وإنا لكم تبعا..... والآن عليك أن تنهض، انهض، انهض، وعندما استيقظ وجد أحد أتباعه وراء ظهره مناديًا

عليه انهض ياشيخ عمرانهض، انهض، فتح عينيه ولكنه تصلب في مكانه للحظة حتى استعاد رشده ثم قفز مسرعًا وقال:

بسرعة يجب علي أن أجد تلك ال.... ولكنه لم يكمل، تعجب غلامه من أمره ولهفته الشديدة وراح يلح عليه في السؤال.... ما الذي تبحث عنه ياشيخ أخبرني لعلي أستطيع مساعدتك، أخبرني بالله عليك، لم يجبه عمر إلا بإحمرار وجهه وغضبٌ شديد ونهره بكل قسوة، أغلق فمك، وأغرب عن وجهي، لا أريد رؤية وجهك المقيت هنا أبدًا.

عندما عاد إلى القرية بدأ رحلة البحث عن تلك العنز السوداء ذات الثلاث شعيرات البيضاء، لقد أمضى قرابة الثلاثة أشهر وهو يبحث عنها إلى أن هداه تفكيره إلى أنه حتى ولو وجد العنز بالمواصافات المطلوبة كيف له أن يعرف أن هذه العنز أو تلك لم يعتليها أي تيس، هل تُراه سيسألها؟

وإذا سألها هل ستجيبه؟

أدرك أن هذا الطلب أشبه بالمستحيل فأصابه إحباط شديد وأصبح أكثر غضبًا وأكثر لعنًا على حظه العاثر وبات يلعن كل شيء فوق هذه الأرض وسيطرت على أفكاره أوهام بأنه أضاع كل شيء إلى غير رجعة، لقد كان سريع الإحباط والاستسلام، كان يريد أن يتفوق على شيخه وأن يستخرج ولو كنزًا واحدًا ثم يتباهى به أمامه لأنه كان يظن أن الشيخ عبد الرزاق يراقبه في كل لحظة

بعينين من وراء ظهره، وكأنه يريد أن يُغيظه بأنه وجد كنزًا، مكث على هذه الحالة مدة من الزمن إلى أن برقت في رأسه فكرة شعر أنها سوف تجدي نفعًا لكنها تحتاج إلى المال وبعض الوقت، لقد قرر أن يشتري بعض العنزات الصغيرات ويحتجزهن في مكان لا يمكن لأي تيس أن يقترب منهن ويكون بذلك قد ضمن أحد الشروط، فأشترى بعد جهد مضنٍ قرابة العشرين عنزة حديثات الولادة ولم يكن بإمكانه أن يشتريهن دون أمهاتهن وبذلك يكون قد أشترى أربعين عنزة وكان قد هيأ لهذا العدد الكبير حظيرة وراء الكوخ وبات ينتظر نموهن بفارغ الصبر ويدعو ليلًا ونهارًا أن تكون لأحداهن على الأقل ثلاث شعرات بيضاء في رأسها، كان يبيت في تلك الحظيرة مع عنزاته خشية أن يتسلل إليهن بعض التيوس يغازلهن ويعتلي إحداهن خلسة، كان يخشى عليهن وكأنهن نساءه، انهمك معهن وهجر كل أتباعه ولم يكن يعير أي أهتمام لأي مخلوق عدا عنزاته فظن الأهالي أن بعض الجنون أصابه وفقد بعض عقله، مر الزمن ببطء وكم كانت خيبته عظيمة عندما لم يظهر لأي عنزة ثلاث شعرات بيضاء في رأسها فأخذ منه اليأس والغضب كل مأخذ، صب عليهن جام غضبه فأخذ سكينًا كبيرة وراح يبقر بطونهن ويفصل رؤسهن عن أجسادهن وكاد يفنيهن لولا تدخل بعض أتباعه الذين حالوا بينه وبين تلك العنزات المسكينة، بعد تلك الحادثة كان كل الناس في (عين إمناس) يعرف أن الشيخ عمر فقد عقله وأصبح مجنونًا بشكل لا يقبل الشك...

أعتزل عمر الناس لبعض الوقت، كان يجلس أمام الكوخ تحت الشمس الحارقة وينظر أمامه بحدة دون أن يبدوعليه أنه يرى أحدًا أمامه، كانت عيناه تتقدان وكأنهما عينا شيطان وأهمل نفسه وأصبح يقتات على السجائر حتى أسود وجهه وشفتاه، كان لا يرد على أي أحد أتى إليه طالبًا للعلاج مهما توسل إليه لقد كان تحت وطأة صدمة عنيفة شق عليه أن يخرج منها بسهولة، إلى أن جاء ذلك اليوم، كان جالسًا في وسط كوخه على كرسيه الذي يشبه العرش وباب الكوخ مفتوحًا على مصراعيه مستقبلا شمس الصباح التي عمت المكان، وإذا بفتاة تدخل عليه، كانت طويلة بارعة الجمال تمشي الهوينى، كانت عباءتها جميلة وكانت تختال فيها بكبرياء عجيب، رفع عينيه إليها وأغمضهما قليلا ليتمكن من رؤيتها جيدًا، عندما رأى وجهها الفاتن أحس بأشياء تتغلغل في قلبه من جديد وشعر بعذاب لذيذ وبرعشة تعتريه أعادت له شعوره بأنه ينتمي إلى هذه المخلوقات التي تمشي على قدمين، كان واضحًا من عينيه أنه يرغب في الإفصاح عن شيء ما جال بخاطره لكنه لم ينطق ولو بكلمة واحدة، وقفت الفتاة أمامه تتأمله، فتحت عيناها بوسعهما وقالت له بصوت جميل:

تشدد وكن شجاعًا، إن حياة الخائفين سيئة يا شيخ عمر، تشجع وواجه نفسك وتخلص من أوهامك، لم آت إليك لطلب العلاج فأنا كما ترى أحمد الله لا أشكوا من شيء وحتى إذا شكوت من شيء لن أحضر إليك للعلاج، ولكنني شعرت أنك بحاجة

للعلاج، ما جاء بي إلى هنا سوى عينيك يا شيخ، ثم انصرفت بكل خفة وكأنها طيف، شيء مبهم شعر حياله بالذهول، شيء لا يفسر، نهض من كرسيه وخرج وراءها ليتأكد أنها ليست خيال خرج له من رأسه، رآها تبتعد شيئًا فشيئًا، وقعت كلماتها على قلبه موقع السحر أحس أن عقله قادر على التفكير، تعهد في ذات نفسه بسرعة أن يطوي هذه الصفحة النجسة من حياته وأن يعود ليبحث عن نفسه من جديد ويبتعد عن هذا المكان بأقصى سرعة، شعر أنه يحتاج من هذه المخلوقات الجميلة أكثر من معاشرتهن فقط، يحتاج إلى الحب الذي لم يعد في قلبه مكان له، أغتسل وذهب إلى حظيرته وأخذ ماتبقى من عنزاته وساقها إلى السوق ليجمع المال الذي يُمكنه من الرحيل إلى أي مكان بعيدًا، ولكن لم يبدِ أحدًا رغبته في شراء أي عنز من عنزاته، مكث في السوق إلى أن غربت الشمس ولم يبع أي عنز، وفي طريق عودته إلى كوخه وهو يسوق عنزاته بكل يأس لمح شيخًا كبيرًا في السن ممسكًا بحبل كان قد ربط أخره في رقبة عنز كبيرة وبجوارها صغيرتها، اقترب منه وراح يتفحصها بفضول وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى ثلاث شعرات بيضاء على رأس تلك العنز الصغيرة فسأل الشيخ بلهفة شديدة عن ثمنها، أدرك الشيخ شدة لهفته لشراءها حتى ولو طلب وزنها ذهبا، قال له أنها ليست للبيع لقد أشتريتها للتو ولن أبيعها أبدًا، وأخذ يماطله حتى جعله يقايض كل عنزاته بتلك العنز وأمها وعاد مسرورًا إلى الكوخ ونسي ماتعهد به لنفسه ونكص

على عقبيه، ومنذ ذلك اليوم أصبح حديث القرية فكان الرجل الأحمق الذي قايض خمسة وعشرين عنز بعنزتين فقط وأمسى محل سخرية الجميع ولم يشك أحدًا بأنه فقد عقله تمامًا وبشكل كامل، كانوا يتقولون عليه الأقاويل بأن بعض الجن التي كان يستخدمها في السحر قد انقلبت عليه وجعلت منه مجنونًا وراهن بعضهم أن جنونه سيتفاقم حتى يخرج عاريًا من كوخه ويجري أمام الناس في منظر مخزي، سوف تكون نهايته بالانتحار بتعليق نفسه بحبل في أحدى الأشجار وتأكله كلاب البرية، كان يسمع كل مايقال عنه لكنه لم يبال بكل هذا مقنعًا نفسه أنهم عندما يرون ما سيصبح عليه من الثراء سوف يلهثون إلى تقبيل يديه وقدميه كما كانوا يفعلون سابقًا وسوف يعلمهم الأدب وينتقم لكرامته، لقد أصبح يرعى تلك العنز الصغيرة ويصطحبها إلى أي مكان يذهب إليه، كان يجرها وراءه بحبل طويل مربوط في رقبتها وربط طرفه الأخر بين جنبيه فأطلق عليه صبية القرية لقب (أبو عنز) فأصبح معروفًا بهذا اللقب وتناسوا اسمه وجاهه والوقار الذي كان عليه سابقًا، لقد أضحت ثيابه رثة ورائحته مثل جيفة حمار مات في صيف حارق، وطال شعره وتفاقم حتى كاد أن يصبح له ظل يمشي تحته وأصبحت أظافره مثل مخالب حيوان مفترس تحمل تحتها أكوام من القذارة والأوساخ، لقد أعتاد الناس على رؤيته في هذه الهيئة ولم يعد يثيرالاهتمام والفضول، لقد ولد احتقار الناس له وعدم اهتمامهم به لامبالاة في نفسه لدرجة أنه بات يقضي حاجته

في أي مكان تحتم عليه ذلك، ويقول لنفسه لن يلوم علي أحد فأنا كما يزعمون مجنون ولا حرج علي، كان يغرق في أعماق نفسه ويمنيها بالغنى والثراء وأنه قادر على الانتقام لنفسه ممن نظرو إليه نظرة سوء وازدراء بعد أن يخرج كنزًا ويصبح ثريًا ويجعلهم كلهم عبيدا له..كان دائمًا مايقول في نفسه أن لى حسابًا سوف أسويه معكم يومًا أيها الأوغاد...

بعد مُضي قرابة الستة أشهر أحس بدنو اللحظة الحاسمة فأخذ عنزه إلى تلك المغارة، تسلل من كوخه قبل مغيب الشمس دون أن يلاحظ أحد غيابه، أشعل نارًا وأنتظر حتى ظهر القمر مكتملًا فأخذ عنزه وقيدها من أرجلها دون الشعور بالرأفة عليها، أمسكها من رقبتها وذبحها وهو يسمي بأسم شمس القراميد، سال دمها الساخن على يديه وقدميه وصاح بأعلى صوته مناديًا على أسياد الكون بأن يشقوا له الأرض ويخرجوا له كنوزها، نادى ثلاث مرات كما أمره الشيخ في الحلم ولكن شيئًا لم يحدث، كان يسمع صدى صياحه يردده الجبل مرات متتالية، ولم يتحرك شيء، مكث يردد مقولته وينادي أسياده حتى قارب الفجر على الطلوع ولم يحدث شيء، أحس بالخزي والهزيمة وأنهار إلى أقصى درجات اليأس، كان الغضب يتفاقم في قلبه فلم يستطع له كبحًا، لقد كانت الأفكار تتزاحم في رأسه وتُصدرضجيجًا متصاعدًا مربكًا، لقد كان في حالة انفعال وهياج شديدين، كان يريد أن يصيح فأعياه النطق فانفجر بالبكاء والنحيب، أسند ظهره إلى صخرة قريبة منه

ومدد قدميه واستغرق في حالة من الشرود وأرتسمت على شفتيه انحناءة إلى الأسفل تُظهر حجم الحزن الذي كان يعانيه، كان ينظر إلى السماء بانكسار شديد دون حركة، ثم أنتفض مسرعًا وأخرج البخور العجيب من جيب سرواله وألقاه في النار وأخذ يستنشق بشراهة لعله يلتقي بذلك الشيخ ذي اللباس الأبيض في غفوته ويسأله لماذا لم تنشق الأرض ولم تُخرج كنوزها، ولكنه لم يرى شيئًا، مكث مستلقيًا حتى أنتصف النهار ولفحت شمس الظهيرة الحارقة وجهه، نظر إلى العنز المذبوحة والذباب المنتشر حول رقبتها، وقال في نفسه لنفسه:

(تفوه...) إنك لا تساوي روث هذا الحيوان الذي قتلته، إنك أقل حقارة من برازها، نهض بصعوبة بالغة وكأن وزن جسمه أصبح أضعاف ماهو عليه، وضع يديه وراء ظهره وحرك قدميه بانكسار شديد عازمًا على العودة إلى كوخه، كانت خطواته متثاقلة، كان ينظر إلى قدميه وكأنه يحثها على الحركة ويستجديها ألا تخذله..

رجع إلى كوخه وأقفل الباب على نفسه، لم يفتقده أحد ولم يسأل عنه أحد، ما حصل له خلف جرحًا في نفسه لا يندمل، شعر بهوة بعيدة بينه وبين نفسه، بات يقتات على بعض أرغفة الخبر اليابس شأنه شأن الماشية، وداوم على استنشاق ذلك البخور العجيب لعله يرى شيئًا في منامه، جعله طقسًا من طقوسه، جعله

مثل إحدى صلواته التي هجرها منذ وقت بعيد إلى أن نفد منه ذلك البخور ونفد مالديه من مال وحتى الخبز اليابس أصبح من الصعب الحصول عليه، أصبح كالحي الميت الذي لا رجاء منه، زاد سواد وجهه وغارت عيناه ولم يعد قادرًا على فعل أي شيء، ولم يعد يجد ما يقتات عليه إلا من فتات كان يلقيه إليه بعض الجيران وكأنهم يعطون فضلاتهم إلى كلب أجرب، كان الشيخ محمد إمام المسجد هو الوحيد الذي يرسل له طعامًا طيبًا نظيفًا، لقد كان يرسل ولده الصغيرعبد الرحمن كل يوم بإناء فيه بعض الطعام، كان طعامًا متواضعًا ولكنه نظيف، كان عبد الرحمن صغير الحجم أسود اللون مثل أبيه ولكن ملامح وجهه كانت جميلة وله أسنان غاية في الجمال والبياض، كان يأتي إليه مرتديًا جبة قصيرة سوداء يظهر فيها وكأنه حبة زيتونة سوداء شديدة الجمال واللمعان، كان طفلًا جميلا حقًا، لم يكن يخاف من عمر المجنون كما هو الحال عند بعض الأطفال، كان يضع الطعام أمام البيت وينادي على عمر بأن يأخذ طعامه وينصرف، نظر إليه عمرذات يوم وسأله ابن من تكون! أجابه بأنه أبن الشيخ محمد إمام المسجد، قال في نفسه بصوت مسموع:

تبًا لهذا العبد الأسود أليس له شيطان يوسوس له كباقي البشر، إنه دائم الاستقامة بشكل مريع، ويبعث عن النفور ويصيب المرء بالإحباط والخزي.... لقد أحب ذلك الصبي بما تبقى معه من الإنسانية وود لو كان قادرًا على ابتلاعه من شدة جماله..

كان يظن أنه من الصعب عليه أن يعود لرشده وأن يجمع أشلاء نفسه المبعثرة يأسًا، لقد كان أكثر شيء يقض مضجعه ويؤرقه هو كيف له أن يعيد احترام الناس إليه وأن يقنعهم بأنه ليس مجنونًا وأنه لم يفقد عقله، إن إقناع الناس بأمر غير الذي اعتادوا عليه أمرٌ صعب أشبه بالمستحيل، أخذه الحماس والغرور وأحس بأنه قادرٌ على ذلك، إذ أنه أقنعهم ذات يوم بأنه شيخ معالج وسلب منهم أموالهم وحليهم أفلا يستطيع الآن أن يقنعهم بأنه غير مجنون...

نهض ذات صباح فأغتسل ولبس أحسن ماعنده من ثياب وخرج من كوخه وراح يسلم على كل من يلتقي به في الطريق دون أن يبالي بنظرات الاستغراب إليه ودخل إلى المسجد وصلى مع الجماعة دون أن يكلم أحدًا وعندما هم بالخروج من المسجد استوقفه الشيخ محمد وأمسك به من يده من الخلف وعندما التفت ورآه بلغ به الرعب مبلغًا كاد أن يفقده صوابه، كان عمر يحاول عبثًا أن ينظر في عينيه ولكن الشيخ نظر في عينيه مباشرة وسأله:

هل أنت مسلم؟

لم يجب عمر على سؤاله وألقى إليه بنظرة تائهة مفعمة بالخجل، أردف الشيخ قائلًا:

يابني إن هذا الدين يختصر نفسه في جملة قصيرة مفيدة، جملة تكون لك مثل المحجة البيضاء التي لا لبس فيها وأرضية صلبة تمنعك من الغرق في أوحال الرذيلة، جملة لو أتخذتها

منهاجًا لكفتك، ولو جعلتها عقيدة تكون بمأمن من نفسك الأمارة بالسوء ومن شيطانك الملعون، جملة واحدة تجعلها حلقًا في أذنك (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، إذا سلم الناس من لسانك بألا تتكلم عنهم بالسوء وأمسكت يديك عن إيذائهم تكون بذلك قد جمعت جل الإسلام في قلبك وما يكون بعدها من فرائض أهون منها، أنك تصغى إلي ولكن يبدو أنك لا تفهم ما أقول، أين أضعت نفسك؟

أين أضعت عقلك؟

عليك بالرجوع عن هذا الطريق، لقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله يابني، ألا ترى إلى الناس كل يوم في أسلاب الهالكين، أننا كل يوم ندفن إنسانًا يذهب إلى ماقدم من عمل، ألا ترى إلى هذه المقابر كيف أمتلأت وانتصبت حتى علت الأسوار، عليك بالرجوع يابني، أعلمُ يقينا أنك لست مجنونًا وعقلك يعمل بشكل جيد، استعمله جيدًا وستجد نفسك في مأمن، ترك يده وقال له أستودعك الله الذي لاتضيع ودائعه، في رعاية الله... كان عمر يريد أن يتحدث فأعياه النطق وأحس برغبة شديدة في البكاء ولكنه تمالك نفسه وخرج مسرعًا، كان يلمح نظرات الريبة في أعين الناس وتوجسهم منه خيفة، كان يتلعثم إذا أراد أن يقول شيئًا أو أن يسأل على شيء، لقد كان يحتاج إلى قوة جبارة ليُخرج نفسه من هذا المأزق الذي وضع فيه نفسه ويعيد احترام الناس إليه،

فعندما يضيع الاحترام ليس من السهل استرجاعه.. كان حواره مع الشيخ محمد أشبه بنصائح والده (إمحمد) عندما كان طفلًا، شعر بالحنين لأبيه بشكل كبير وبرغبة في البكاء طويلًا...

أمضى أيامًا وأسابيع وهو على هذا الحال، كان يبحث عن أي أحد يريد بناء بيت حتى بنصف ثمنه أو أي عمل أخر يقتات منه، ولكن دون جدوى فلم يعد أحد بحاجة إليه، لقد كان مجنونًا في أعين الناس أو هذا ما خُيل له عن نفسه، إذ كيف لأحدهم أن يعتمد على رجل مجنون في بناء بيت أو أي عمل أخر، لقد أدرك أنه عبثًا يحاول ولن يقدرعلى ذلك أبدًا فأصيب بإحباط شديد وشعر بالوحدة وأنه أضاع كل شيء وأصبح هباءًا منثورًا، أبتعد عن عيون الناس التي لا ترحم أحدًا كان يشعر بنظراتهم كالأسهم موجهة إلى قلبه وأصبح في خلوة مع نفسه يفكر في هذه الدنيا كيف بدأت معه بالغدر وهو طفل صغير وكيف غدرت به الآن وهو يقترب من منتصف العمر، كان ذلك شديدًا على نفسه، لم يفكر في أن يلوم نفسه أبدًا وأنه من أوصل نفسه إلى هذا الانحطاط المخزي، لقد أغرق نفسه في عالم من خياله يعيش فيه ويحلم بالذهب والثراء والغنى، عالم من الوهم والحلم وبين اليقظة والنوم، لقد تناسى حقده على الناس وكان كل همُه أن يجد عملا أو يُسعفه الحظ ويُخرج كنزًا يعيد له قيمته بين الناس، لقد أختلطت عليه الأمور، كان يفكر في أمور كثيرة معقدة، تخطر بباله ذكريات وأحداث جمة، لم يعد يدرك أن ذلك الشيء أو غيره قد حدث

فعلًا أو أنه رأى في حلمه ليلًا أو نهارًا، لقد انهار ذلك الستار الخفي الذي كان في نفسه، الذي يفصل بين الحقيقة والوهم، عن الخيال والواقع، انبثقت من أعماقه مشاعر غريبة عن نفسه وراح يفكر في هذا الوجود وبات يطرح على نفسه أسئلة لا أجوبة لها، ما الذي يفعله هنا؟

ومن الذي أتى به هنا؟

ولماذا وجد فوق هذه الأرض؟

كان يسأل نفسه وكأنه استيقظ لتوه من سبات عميق وما كان كل ذلك سوى حلم أو كابوس مريع مر عليه وهو نائم، لقد أصبح كل شيء حوله غريبًا يراه لأول مرة، ذلك العنكبوت الصغير فى أعلى السقف، ذلك السرير الخشبي في زاوية الكوخ، أصبع قدمه الصغير، هو نفسه كان غريبًا عن نفسه وكأنه يرى هيئته لأول مرة، كان كل شيء حقيقي وغير حقيقي يحتاج لإعادة ترتيب في عقله من جديد، لم يكن بمقدوره أن يخرج من هذه الأوهام إلا بالنوم، كان يمضي معظم وقته في النوم أو مستلقيًا على ظهره ينظر إلى سقف الكوخ نهارًا وإلى السماء المرصعة بالنجوم ليلًا، وفي إحدى الليالي الكئيبة المليئة بالوهم وبعد أن عثر على قليل من بخوره بالصدفة تحت فراشه الرث، أستنشقه وغط في نوم عميق وبعد مُضي نصف الليل تراءى له في أضغاث أحلامه ذلك الشيخ ذي اللباس الأبيض ولكن هذه المرة كان لباسه أسود اللون وكانت

له ذقن بيضاء طويلة، لم يكن يشبه أحدًا من البشر، كان أقرب إلى تيس عملاق بقرون حادة وكانت عيناه تميل إلى الإحمرار، رأه واقفًا أمامه بعد طول هجران فبكى من شدة اللهفة والشوق وصرخ ضاحكًا من الفرح فسأله:

لماذا هجرتني، لقد جعلت مني مجنونًا بين الناس، لقد شعرت بالخزي والعار ولم أفش سرك، أين كنت؟؟

أجابه ذلك الشيخ الملعون بصوت كريه:

إياك ثم إياك أن تهتم لأمر الناس، لا تعرهم أي اهتمام، لقد قلت لك ذلك ألف مرة ولكنك لا تعي، عليك أن تسمع ما أمليه عليك أنا فقط، لقد هجرتك لبعض شأني، أتحسب نفسك أنت فقط من أظهر له، هيه لدي الكثير من أمثالك، عليك أن تكون صبورًا ومطيعًا ولا تسأل عن أي شيء أبدًا حتى أخبرك، الم تتعلم الصبر من الشيخ عبدالرزاق؟

الم يقل لك أن الخضر صاحب موسى يظهر للصالحين ويملي عليهم أوامر الله من علياءه، أنا ياشيخ عمر مبعوث من حضرة الخضر المقدس، أنك في هذه الدنيا لن تسلم من المحن مهما حاولت، سنبقى نختبر صبرك وجلدك إلى أن تموت، هذا طبعًا بعد عمر طويل، طويل جدًا...

- سأكون طوع أمرك، فقط لا تغب عني طويلًا لأنس ماعدت أعرف ماذا سأفعل من دونك.

ضحك الشيخ ضحكة مجلجلة، وقال له:

تريد أن تطير في السماء وتمشي على الماء وأن تأمر فتُطاع، كل هذا سيكون لك وسوف تكون قطبًا من أقطاب هذا الكون، إن حياة الشيوخ صعبة ياشيخ عمر، يتعرضون للأذى والسخرية والفقر والعوز ولكن عندما يتجلى لهم الملك بقدرته وجبروته، عندها يصبحون قادرين على فعل كل شيء ولا يعجزهم في هذه الأرض أي شيء، عليك أن تطيعني في كل شيء دون أن تسأل عن أي شيء، أن هناك طقوس عليك أن تحافظ عليها ثم سنرى إلى أي مدى يمكنك الالتزام بها.

كان عمر في محنته الأخيرة بعد أن بلغ به اليأس كل مبلغ يُمني نفسه بالتوبة وأن يبتعد عن هذه الحياة المخزية وهذا الانحطاط الذي وصل إليه وأن يرحل إلى أي مكان بعيد لا يعرفه فيه أحد، ولكنه لم يعقد عزمًا حقيقيًا على ذلك، لقد كان سابقًا في أول عمره يتمنى أن يعرف موعد قدوم الشيطان ليحتاط منه ويتهيأ له بعزمه لكي يمنع نفسه في الوقوع في الذنب والخطأ، لكنه الآن وصل به الانحطاط والفسق إلى أن ينتظر الشيطان بفارغ الصبر لكي يُملي عليه ما يفعل في حياته البائسة، كان يمني نفسه بأن يتحصل على كنز واحد على الأقل وبعدها سيتوب مما هو فيه توبة تستحي منها العذارى على حد قوله، لقد تساءل ذات يوم وهو طفل صغير هل صحيح أن الله لديه نارًا سيحرق فيها كل من

يخطئ حتى يطهره من ذنوبه وأخطاءه وأن هناك من سيخلد فيها إلى أبد الأبدين ولن يتطهر مهما أحترق، لم يكن عمرآنذاك يحمل كل هذا الشر في قلبه، لم يكن مقتنعا بأن هناك مايستدعي إله عظيم مثل الله أن يحرق الناس لمجرد أنهم أخطأوا وأقترفوا الذنوب، ولكنه عندما كبُر وفعل ما فعل من سحر وإغواء النساء وأكل أموال الناس بالباطل، أدرك كم هو لطيف هذا الإله إذ لم يحرقه بالنار أو يُنزل عليه صاعقة من السماء وهو يمشي على قدميه فوق هذه الارض قبل أن يحرقه في نار جهنم، لقد كان يعرف أن الشيطان يغريه ولكنه أستمتع بذلك وأدرك أيضًا أنه سيلومه على كل ذلك، لكنه لم يتوقف، كان يؤجل توبته إلى أجل غير مسمى وكأنه سيعيش إلى ما لا نهاية...

لقد أمره شيخه الشيطان بأن يفتح كوخه من جديد أمام الناس لعلاجهم من السحر، وأن يقيم حضرة كلما اكتمل القمر وأن يجمع الناس إليها بعد مغيب الشمس وأن يرقصوا فوق الجمر وأن يُعكِروا صفو سكون الليل بدفوفهم ومزاميرهم، وكأن الشيطان بطلبه هذا يريد أن يشعر بأنه إلهٌ له نارٌ يحرق بها ويعذب بها شأنه شأن الله، لم يكن الرقص غريبًا على أهل الصحراء، لقد كانوا يعشقون الرقص والغناء فتراهم يرقصون في كل مناسباتهم ويتفننون في إتقان بعض الرقصات مثل رقصة الطير ورقصة السيف، كان يأمل بأن تكون هذه العادة أحد الأساليب للدخول إلى عقولهم وعقائدهم عندما يرون ما تفضي إليه من كرامات وطرد للجن، وخاصة عندما

يرقصون على نار لا تصيبهم بأي أذى بسبب السحر الذي يعتقدون أنه من كرامات الشيخ عمر، لقد عاد إلى كل هذا وكان يشك في أن يتبعه أحد أو يهتم لأمره بعد أن رأوه بهيئته المجنونة ولكنه ذُهل من ترحيب الناس له وبعودته لفتح كوخه للعلاج، لقد أستبد الأمر بشيطانه إلى حد أن يأمره بأن يغوي بعض النسوة وبعض الصبية حتى يرقصوا حفاة عراة في حضرته التي حدد لها موعدًا عند نهاية كل شهر وأن يفعلوا كل ما يحلو لهم من زنا ولواط بحجة طرد الجن والشياطين وأن يكثروا من الذبائح ويقدموها قرابين لملوك الجن والأولياء الصالحين، كان الشيطان قد أمره أيضًا بأن يجعل لهم ليلة ظلماء لابدر فيها يكفرون فيها عن ذنوبهم التي أقترفوها في ليلة الحضرة بأن يجلد بعضهم بعضًا بالسياط وأن يصرخوا في العراء بأعلى صوت، لقد أبتدع لهم ليلة أسماها ليلة (الغلطة) يفعلون فيها ما يشاءون خلال الحضرة، وليلة أخرى تسمى بليلة التكفيرعن الغلطة بجلد أنفسهم بالسياط للتكفيرعن الذنب، كان عمر يغريهم بأن الأولياء الصالحين سيختارون أشخاصًا أخرين سيجعلونهم أسيادًا على الناس بشرط أن يجتهدوا في طاعته دون السؤال عن أي شيء وأن لايُحضروا معهم إلى الحضرة إلا من كان أهلا للثقة وألا يفشوا سرهم ومن يفعل ذلك ستلاحقه اللعنة إلى أخر يوم في حياته، لقد عاد إلى مجونه وفسقه السابق، كان كلما أشتهى امرأة يفعل بها ما يشاء بحجة أن أحد الصالحين قد حضر في جسده ويريد أن يباركها، كان كلما أشتهى أمرًا فعله بحجة أن

أولياءه طلبوا منه ذلك، لقد عاد شيطانًا من جديد، وعاد بارعًا في الكذب كما بدأ وانهالت عليه الأموال والهدايا أكثر من ذي قبل، أوهمهم أنه بعد خلوته تلك وظهوره بمظهر المجنون بثياب رثة إنما هو أمتحان للحصول على سر الكون المقدس، لقد كانوا يصدقونه فيما يقول ويدعون له بطول العمر وبأن تحرسه أعين الصالحين التي لاتنام، لقد عاد إلى غيه من جديد، أضاع مزيدًا من عمره على هذا الحال، كان لضميره بعض الوخزات من حين إلى أخر ولكنه يزجره ويقزمه ويذكره بفقره وعوزه وأنه كان يعجز حتى عن إيجاد رغيف الخبز اليابس ويأكل فضلات الناس مثل كلب أصابه داء الكلب، وأنه الآن يستمتع بكل ما لذ وطاب من طعام ومن نساء، كان يتذكر الشيخ علي من حين إلى أخر والنقاء الذي كان عليه وسيرته العطرة التي كانت تسبقه أينما ذهب ويقول لنفسه كلُ أمرئ ميسر لما خلق له،، لكن عندما يشتد به سخطه على نفسه كان يلعن نفسه ويقول:

شتان ما بيني و بين الشيخ علي، لقد كان إنسانًا طاهرًا نقيًا تقيًا، أما أنا فلست سوى كلب أجرب أستزلني الشيطان ودعاني وأنا قبلت دعوته بكل ترحاب لدخول جهنم راضيًا أسعى لها حثيثًا مكبًا على وجهي، كان يغلق كوخه عليه ويسرف في الشراب لدرجة أنه لا يستطيع النهوض من مكانه ويستنشق أبخرة كثيرة تصيب ضميره بالسكون والرضا، لقد أفتى لأتباعه بأن شرب عصير العنب المعتق ليس محرمًا حتى لو

أصاب بالسُكر، ولما كان الشيطان يعرف أن ضميره بات على وشك الاستيقاظ أصبح يوسوس له أكثر من ذي قبل ويعظم من شأنه في نفسه ومن الجاه الذي وصل إليه، أخد يقنعه أن النعيم الذي هو فيه يتمناه كل إنسان حتى لو باع نفسه لشياطين الأرض مجتمعين، كان دليله في ذلك المحيطين به من كل جانب، كانت أرواحهم وأنفسهم معلقة بالجاه والغنى ونظرات الحسد والإعجاب تعلو أعينهم ويتمنون ربع ما عنده، أصبح في صراع مع نفسه من جهة ومع شيطانه من جهة أخرى، كان يخاف العودة إلى الفقر والعوز وهوانه على الناس، كان يقول في ذات نفسه أن الناس فيما مضى كانوا يحترمون كل ذي علم ولكنهم الآن باتوا يحترمون كل ذي قرش ويخافونه، ما عدت بحاجة إلى احترامهم بقدر ما أنا بحاجة لخوفهم مني، أدرك أن العائق الوحيد الذي كان يقف أمامه سطوته على عقول الناس هو الشيخ محمد أمام المسجد وها هو الآن قد مات وذهب إلى ربه، لم ينس عمر معروف الشيخ محمد وكيف كان صادق النصح له وكيف كان يكرمه ويطعمه لوجه الله دون الحاجة إلى الجزاء أو الشكور، أخذ عمر على نفسه بما تبقى له من خير قليل في قلبه أن يكرم ولده الصغير عبد الرحمن وأن لا يجعله يحتاج لأحد، كان يغدق عليه المال والهدايا بإلقاء كيس من المال أمام بيتهم دون أن يراه أحد مصحوبًا بورقة كتب عليها (كلوا من مال الله وأشكروا له) لم يكن يريد أن يقترب من عبد الرحمن أو

عائلته لشعوره بالنجاسة وإذا اقترب منهم ربما يلطخهم بأفكاره وسُبُله الغير سوية، لقد كان لعبد الرحمن مكانة في قلبه ويود لو أنه يبقى طفلا بريئًا طوال عمره..

كان الشيطان قد كثف جهوده لإغواء عمر أكثر فأكثر فأصبح يرسل إليه في أحلامه حجم تلك الكنوز المدفونة في باطن الأرض، كان يراها وكأنها حقيقة وأصبح حلمًا واحدًا يتكرر عليه أكثر من مرة في كل ليلة، كان يرى تلك المغارة التي ذبح فيها عنزه السوداء ذات مرة مليئة بكنوز جمة، كان يرى أدق التفاصيل من ليرات ذهبية صكت في زمن الرومان وصولجانات كبيرة وتيجان مرصعة بالجواهر، كان بريقها يلهب مشاعره ويغريه أشد درجات الإغراء، لقد أخبره الشيطان في حلمه أن هذه المغارات قد هجرها حراسها وأصبحت في متناول يده بشروط قد أختلفت الآن، أغراه بشدة وأوصاه بألا يستمع لأنات ضميره التي تدعوه إلى الفقر والصبر والقناعة، ومالقناعة والحياة الهانئة إلا كذبة من صنع البشر والفقر، وأن الناس عندما يعجزون عن إيجاد ما يأكلون وما ينفقون تكون لهم هذه الأعذار الغبية الواهية، وأنهم من شدة بؤسهم ادعوا أن هناك حياة أخرى بعد الممات وجعلوا لها إلهًا وثوابًا وعقابًا، جنة ونارًا، يالهم من مساكين عليك أن تفعل ما يحلو لك في هذه الدنيا وأن تستمتع بما يغدقه عليك أرباب نعمتك ولا تكن جحودًا وغبيًا ساذجًا، أنت الآن تعيش في الجنة وما الجنة إلا المال الوفير والجاه الذي أنت عليه الآن،، أواه،، عجبت لهولاء البشر كيف

يؤمنون بشيء لا يرونه، هل رأيت من يقولون أنه إله للبشر وإله السموات والأرض؟

هل سمعت يومًا أن أحد من البشر رأى هذا الذي يدعي أنه إله؟

ها أنا ذا أمام عينيك تراني وأراك وأعدك بكنوز الأرض أجمعين ولقد رأيت بأم عينيك ذلك الكم الهائل من الكنوز والذهب، لقد أخبرتك من اللقاء الأول أنه لا يجب عليك أن تسأل عن أي شيء، وأن تلقي ما تسمع من الناس وراء ظهرك وها أنت ذا ترى ما آلت إليه حياتك من جاه وأموال واحترام لا يحظى به أحد فوق هذه الأرض، لو بقيت طوال عمرك تعمل لن تكسب ربع ما تملك الآن، أيعقل أن يعود من مات إلى الحياة مرة أخرى؟

ما هي إلا حياتك التي تحياها الآن ومن تم ستعود إلى تراب كما خرجت منه أول مرة وإني لقادر على أن أطيل في عمرك وأن أبقيك في أوج قوتك مهما بقيت حتى تمل هذه الحياة ولن تنخر السنين عظامك، وبعد الموت ستصبح في حياة أبدية مثلنا، أنظر إلي، إن عمري الآن سبعون ألف سنة وسأعيش مثلها لو أردت ذلك وأنا بكامل قواي.... هذا أخر درس سوف تتعلمه وأخر محنة تتعرض لها و لو خرجت منها وآمنت بما قلت لك فلاخوف عليك بعد اليوم، سوف تمشي على الماء وتطير في السماء وتعانق النجوم وتهد الجبال لو أردت هذا، سوف تسافر مع الريح وتحضر

طعامك من أعلى الجبال ومن أعماق البحار، هذا ما سيغير جنسك من طين البشر إلى مخلوقات النور الأبدية التي لا تموت أبدًا.....

كانت هذه أول مرة يدخل فيها الشك إلى قلب عمر، أصبح يعيد النظر في كل شيء وكأنه يحاول فهم الأمور من بدايتها، كان يلقي على نفسه أسئلة كثيرة، إذ كيف له أن يؤمن بما لم ير، وكيف لم يخطر بباله مثل هذا الأمر من قبل، إذ كيف له أن يعرف حقيقة مايجري، كيف له أن يدرك أين الحق وأين الباطل، وكيف يقولون أن الشيطان باطل، هذا إن كان اسمه شيطان فعلًا ولم يكذبوا علينا في هذا أيضًا، كيف يقولون أنه باطل وهو يغدق علي أموالًا لم أكن أحلم بها يومًا، المال والجاه هل هذه هي الجنة الموعودة؟؟

لقد ملكت من الأموال ما أستطيع أن أسد به عين الشمس وضاجعت نساء لو حبلن مني لأصبح لدي جيش من الأطفال ولكن لا راحة لي في كل هذا... كأن نفسي تنازعني وتصبو إلى عالم أخر بعيد عن هنا، هل هذه هي الجنة؟؟

ظهر له الشيطان من رأسه وقال له لقد أعتدت على سماع هذا الأمر عن الجنة والنار والإله العظيم وما لأخره، ليس من السهل أن تعتاد على أمر أخر، ولكن الحق الحق أقول لك، لا وجود لعالم أخر وهذه الأسرار لا نقولها إلا للمقربين الخواص أمثالك، كن مطيعًا لاتضيع ما أنت فيه من عز وجاه، انظر إلى نفسك كيف

كنت وكيف أصبحت، الجنة التي أعدك بها جنة حقيقية، أنت الآن تعيش جنة الأرض وعندما تقرر أن تنهي حياتك بيديك ستصبح مثل النور في السماء، بروح أخرى وجسد أخر، لقد دعوت إلهك سنين طويلة عندما مرض أخوك بشير وعندما مرض أبوك وتعرض عبد الله للضياع، هاه!

ما الذي جنيته، هل سمعك من كنت تدعوه؟

هل أنقذك؟

هل أغدق عليك المال كما نفعل؟

أصبح عقله يغلي كبركان يوشك أن ينفجر، وشُدت أعصابه بشكل مريع وضجت أعماقه وانهار إيمانه وتزعزع، كانت أعماقه تناجيه وتوحي إليه بأن وراء هذا الكون خالق عظيم لا ينبغي أن يتخذ إله غيره، وكانت أفكاره تقسو عليه وشيطانه ينعته بالتابع الغبي، وأطماعه تشده إلى ماهو فيه والناس من حوله أصبحوا غرباء، وكل شيء ضده ومعه في آن واحد، أختلط عليه الأمر وأنغمس في هذا الأمر بشكل عميق، إلى أن هداه تفكيره إلى أن يتوقف عن كل هذا وأن يؤجل التفكير إلى أن يتضح الأمر لديه، قرر أن يعيش كباقي الدواب يأكل ويشرب ويعاشر النساء دون أن يجهد نفسه بالبحث عن حقائق لا تنفعه ولا تضره حسب اعتقاده، إلى أن يأتي عليه الموت فعندها فقط سيعرف حقيقة ما يجري، ولكنه سرعان ما انهار مرة أخرى وفكر في ذات نفسه ماذا لو كان

الأمر حقيقيًا وأن هناك جنة ونارًا وعذابًا وجحيمًا يحرق، سأكون من الخاسرين، وماذا لو لم يكن حقيقيًا، لكنت أضعت فرصة العيش في هذه الجنة الكئيبة كما يحلو لي، وهل يعقل أن تكون الجنة كئيبة مريعة بهذا الشكل المخزي؟

أن الكآبة والزيف على هذه الأرض لهُما أكبر دليل على وجود عالم أخر تتوق أنفسنا إليه دون أن نشعر، ولمَ نشعر بالملل إذن؟؟

ما الذي نمل منه؟

مهما تحصلنا على ما نريد في هذه الحياة فإنه لايكفي أن نكون به سعداء، نمل من وجوهنا ومن جلودنا ومن كل شيء، ولكن ماذا لو.....

لقد أمهله الشيطان بعض الوقت حتى تنضج هذه الفكرة في رأسه وكان يأمل بأن يؤمن بها إيمانًا عميقا ثم يقنع بها أتباعه، وتكون له أمة يدعون إلى الباطل، مر الوقت وأظهر عمر القوة الكافية لضبط نفسه عن التفكير فمنذ أن قرر ألا يفكر في هذا الأمر لم يفكر فيه أبدًا وأنغمس ينهل من ملذات الحياة دون أن يكثرت لصوت عقله الذي أصبح يعلوا أحيانًا، و بما أن للشيطان طبعًا عجولا بات يتراءى له في أحلامه ويأتيه على صورة الشيخ علي بشحمه ولحمه وأخذ يقنعه بما قال له، بأن ماقاله لك ذلك الشيخ أنه لهو الحق اليقين، أقسم له بسيده عبد السلام أنه الحق، قال له:

لقد رأيتني أموت أمامك برصاص قطاع الطرق، رأيت ذلك بأم عينيك،، لكنني وربي لم أجد شيئًا مما قيل لنا،، فقد عدت للتراب فقط، أنى متحسر على كل لحظة لم أستمتع بها في حياتى، كن مطيعًا ياعمر وأستمتع بحياتك ولا تحرم نفسك من شيء، ولا تكن غبيًا كما كنت أنا، لقد أفنيت عمري في هراء لا طائل منه، عبادات، أرهقت بها نفسي دون جدوى، عليك أن تؤمن بما تراه عيناك فقط، ودع عنك الخوف من العذاب فإنه لا وجود له، اطمئن قلبه وقرر في ذات نفسه أنه لن يعير أهتمام لأي شيء وأن حياته هذه تستحق أن تعاش على أكمل صورة وأن يصرف الأموال على ملذاته وشهواته إلى أجل غير مسمى، طالما أن هناك أموال فيجب أن تصرف، إن كان هناك عبيد يركعون تحت قدميه يجب أن يدوس عليهم ويسخرهم لخدمته، هذا كل شيء، استمر على هذا الحال ولكن نفسه أبت أن تكون طوع أمره فأصبح شريد الذهن مخبول العقل ضعيف الفؤاد، كثير الطلبات الغريبة، يحاول إرغام نفسه على الملذات إرغامًا ويهتم بأدق التفاصيل المملة، لقد أصبح تافهًا لا يطاق، نفسه خاوية من كل مشاعر، بليد الإحساس كريه المنظر والأنفاس، متسلط عديم الصبر عديم الرحمة، كان يخيل للقريبين منه أنه يبحث لنفسه عن مخرج من مأزق وضع فيه نفسه دون أن يدري، كان لا يدري ما الذي يحدث في أعماق نفسه، مرعليه وقت طويل وكأن ستارًا كثيف حجبه وعزله عن العالم المحيط به، كانت بعض الذكريات القديمة تضئ في نفسه

من حين لأخر، لقد أستغرب من فكرة أنه كان يحب هنية ابنة خاله يومًا، نعت نفسه بالأخرق الذي كان يريد حبس نفسه مع خيال فتاة بعيدة، لقد تذكر أخاه عبدالله الذي فعل فعلته مع الضاوية، هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟

هل كان فعل الفاحشة صعبًا لهذه الدرجة التي تجعل الإنسان يتحول إلى وحش؟

أختلفت نظرته للأمور كليًا، ولكن الغريب أن صورة هنية عادت تتغلغل في قلبه من جديد وشعر بعذاب شديد، لم يكن بمقدوره أن يتخيلها على ما أصبحت عليه بعد كل هذه السنين، كانت تحمل نفس الصورة في خياله، لم تتغير بوجهها الصغير البريء، أخذ ينظر إلى وجهها في ذلك الوشم البالي الذي دقه يومًا على ذراعه الذي كان بمثابة العهد على عدم النسيان، هاله ما رأي من ترهل جلده جراء الكبر في السن، وعاد كعادته يلقي نظراته المبعثرة التائهة التي لا ترد إلى عينيه أي جواب، كان يأمر نفسه من حين إلى أخر بأن يعترف بالذنب الذي ينهش كيانه ويُحيله إلى حيوان مكروه وأن يعترف بأن ملكه زائف، مُلكٌ يقوم على الكذب والبهتان سرعان ما يتلاشى، لقد مل كل شيء، بات يشعر بالضجر حتى من أنفاسه الكريهة، وصوت ضجيج عقله المتفاقم، لقد باتت نفسه مهيأة للتغيير دون أن يعلم، يحتاج لشيء يوقظ الثورة في نفسه الراكدة من مدة طويلة.... نساء، أموال، جاه، كل هذا لم يعد يعني له شيء....

ظهر له الشيطان ذات مرة بعد ليلة مليئة بالسكر والدعارة وأستنشاق للبخور الغريب وأخبره أنه قد وجد مفتاح المغارة المليئة بالكنوز وأن ملوكها قد أهدوها إليه لينعم بمزيد من الثراء والغنى، لقد أخبره بأن مافيها لم يعد بحاجة إلى دم عنز سوداء تراق على صخورها، فهذا أصبح من الماضي، إنما تحتاج لدم صبي في العاشرة من عمره أسود اللون به علامة سوداء بعينه اليسرى، لقد كانت هذه أوصاف عبد الرحمن ابن الشيخ محمد إمام المسجد، لقد أخبره الشيطان أن دم ذلك الصبي هو الأنسب لفتح تلك المغارة وإخراج مافيها من كنوز،، قال له إياك أن ترفض هذه العطايا من أرباب نعمتك أو أن تعتذر بأعذار واهية بأن تقول مثلًا أنك تحب ذلك الصبي، ولا تقوى على ذبحه فوق تلك الصخرة، فهذه المشاعر لاتليق بالمقدسين أمثالك، يا خضر هذا الزمان، إنها للبشر الأغبياء الساذجين، أنت لم تعد من البشر، أنك أنت المقدس المختار، ثم إنه لا أب له ليحاسبك على ذبحه، عليك أن تذبحه كما ذبحت تلك العنز السوداء فالأمر سواء فهما يحملان نفس اللون، عليه أن يموت دون أن يعلم موته، فالمصلحة هنا أعظم من مشاعرك الواهية، هذه أقدار الدنيا وأنت من سينفذها أيها الجبار، هذه الكنوز ستحي بها أنفسًا كثيرة مقابل نفسٍ واحدة.....

تراءى له ذلك الكابوس الشنيع ورأى نفسه يجرالصبي عبد الرحمن إلى تلك الصخرة معصوب العينين مكتوف اليدين وقد مرر ذلك السكين الكريه على رقبته الصغيرة فتلطخ حلمه بالدماء،

رأى أنه يذبح نفسه وتلك الرأس التي تدحرجت لم تكن سوى رأسه، انتفض من نومه فزعًا، بكى بكاءًا شديدًا، كان ينتحب بشدة، أمسك رأسه بكلتا يديه وأخذ يلطم ويندب على ما وصل إليه حاله من إجرام، كان العرق يتصبب من جسمه وأحس بنفسه في الجحيم، راح يلعن شيطانه ويلعن الكنوز والمال الذي أوصله حبه إلى أقصى درجات الانحطاط والإجرام، سأل نفسه أيعقل أن أقتل صبيًا من أجل حفنة من المال والذهب؟

أتفووووه! أتفووووه عليك، اللعنة عليك اللعنة، وأخذ يصيح وينتحب شأنه شأن الأطفال، لعن نفسه وتشفى فيها ولامها على فتح قلبه للشيطان وكيف عاث فيه فسادًا، لم يكن قد فكر في الانتحار من قبل ولكن الفكرة لمعت في عقله بشكل مفاجئ ولولا شعوره بالعناد أمام وجه الشيطان لقام بقتل نفسه دون تردد، أخذ يلعن نفسه ويلومها فهي سبب ماهو فيه الآن، ياله من ملعون أيأمرني بالقتل؟؟؟

لو طلب منه الشيطان قتل شخص أخر ربما لن يثور بهذا الشكل المثير الغير متوقع، ولكن ماذنب ذلك الصبي الصغير، أدرك بعد كل هذا العمر أنه لن يستطيع أن يتوقف عن اقتراف الذنوب مهما حاول ولكن هناك فرق بين ذنب وأخر، لن يصبح إنسانًا كاملًا مهما حاول، لو لم يكن ناقصًا لم يكن إنسانًا أصلا، لقد قال له الشيخ علي نصف الحقيقة ولم يتسنى له أن يقول له

نصفها الأخرعن حيل هذا الشيطان الملعون وألاعيبه، أنه لا يعرف الملل ولا يتوقف أبدًا، ياله من كذوب حقير، أدرك أن الشيطان يقف على حوض ماءٍ أُجاج يدعوا إليه البشر لكي يشربوا منه ولن يزيدهم إلا عطشا، كان يعدهم ويمنيهم وما يعدهم إلا غرورًا، وأنه أخذ بنواصيهم إلى نار جهنم ليكبهم فيها على وجوههم خاسئين،، كأن الدموع التي سكبها قد غسلت قلبه وأزالت الغشاوة التي كانت على عينيه، تذكر كلام الشيخ علي عن هذه الدنيا بأنها أشبه برحلة إلى عالم أفضل أو أسوء، لقد أدرك الآن معنى كلامه جيدًا، وأدرك في لحظة صدق بينه وبين نفسه أن هذه الأرض مكان غير ملائم لحياة أفضل، وأنه ما من كنز يضاهي أن تعيش في رغد دون منغص، وهذا لا ينطبق على هذه البقعة الكريهة من الكون، وما من شر أكبر من أن يطول عمرك فيها وأنت على ضلال، راح يلعن الشيطان ويستعيذ بالله منه ويتوعد نفسه باللجام ويبعث الرحمات على روح الشيخ علي، ويلعن شيخ الشياطين عبد الرزاق، لقد أحس بثقل شديد انزاح عن قلبه وشعر بخفة لم يشعر بها منذ وقت طويل، لقد أنعتقت روحه من براثن الشيطان واستعاد حريته وأنطلق فؤاده يتوق للجنة وما فيها من نعيم، وأنه لامكان يستطيع أن يعيش فيه دون منغص إلا الجنة، كفى بالغم والحزن شاهدين على وجود عالم أرحب وأوسع وأرحم، أخذ يمعن التفكير ويبصر دقائق الأمور، إن ما كان عليه من مال وحظوة بين الناس لكفيل بأن يشعره بالسعادة والرضى، ولكنه أدرك أن كل هذا باطل وزائف،

وما كان حزنه الدفين وعدم الرضا الذي كان في أعماق ذاته إلا شوق روحه التواقة إلى عالم أفضل، روحه التي تعرف جيدًا من أين أتت، روحه التي فطرت على الشوق إلى روح الله العظيم، لقد ذرف ما في جفونه من دموع ندمًا على مافعل وعلى ما كان سيفعل ورجع إلى قلبه الإيمان الذي ضاع منه خلال رحلته في هذه الدنيا..... الحب، ولا شيء غير الحب، هو الذي أنقده من أسره وفك قيوده، حبه للطفولة، وللصبي عبد الرحمن هو الذي أيقظ ضميره خوفًا، لقد تعرض لشتى أنواع العذاب ولم يرجع، تعرض للسخرية والإذلال وللفقر والعوز ولم يحرك ذلك في قلبه شيئًا، لقد وجد النصيحة من الشيخ محمد ولم يأخذ بها، ولكن عندما أحس بأنه سيرتكب جريمة بحق الطفولة بأكملها إذا أقدم على قتل ذلك الصبي، أيقظ ضميره فجأة وعاد إليه صوابه وتداركته رحمة الله بالرغم مما فعل،، لقد أنقذه الحب أخيرًا..

قرر عمر الرحيل إلى أي مكان لا يعرفه فيه أحد لكي يطلب التوبة والغفران من الله وحيدًا بعيدًا عن أعين الناس، حدث نفسه أنه ربما يغفرالله له ذنوبه ولكنه لن يغفرها لنفسه أبدًا، كانت مدينة (غدامس) أول مكان يذهب إليه بعد رحيله من (عين إمناس) مكث فيها قرابة الثلاث سنوات، أكمل فيها حفظه للقرآن ولزم المسجد دون التعريف عن نفسه لأحد، وكان يعمل في بناء وترميم البيوت، الشيء الوحيد المفيد الذي تعلمه من الشيخ عبد الرزاق، كان الحقد قد زال من نفسه على الشيخ عبد الرزاق، وبات من

حين لأخر يطلب له المغفرة من الله ويتعذر له بالجهل، لقد بات يعرف معنى الراحة الأبدية والنوم الهنيء....

بعدها أستجمع قواه وقرر العودة إلى مسقط رأسه (ترهونة) وعند وصوله علم أنه لم يبق له من عائلته إلا سيرتهم الغابرة فقرر الرحيل هو أيضًا يُمني نفسه بالأماني فربما تجمعه الأقدار مع من تبقى منهم، لقد بلغ من العمر خمسة وخمسين سنة، استقر في مدينة طرابلس وكان قد بنى مسجدًا دون مقابل، بمساعدة المتبرعين من الأهالي بالإضافة إلى بيت صغير بجانب المسجد اتخذه لنفسه وتفرغ للعبادة وتحفيظ القرآن للصبية دون مقابل، كان الأهالي يرسلون إليه أطفالهم ليعلمهم القرآن ويرسلون له بعض المال ولكنه كان يقول لهم، إنما نعلم أولادكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءًا ولا شكورًا، إنما أجرنا على الله، لم يكن يريد الزواج وأراد التفرغ للعبادة فقط ولكنه فكر أن الزواج من ضمن العبادة وأنه لاينبغي له أن يبقى هكذا وحيدًا دون امرأة تقوم على شؤونه وتؤنس وحدته وتنجب له أطفالًا، فأنتقى لنفسه زوجة صالحة، أدرك بعد الزواج أن النساء مثل الثمار الشهية لابد له أن يقطف له واحدة أخرى، كان مذاق هذه الثمار الشهية بالحلال يختلف كليًا عن تلك النساء اللواتي قابلهن وفعل معهن الفاحشة، كان شعورًا لايوصف، قطف لنفسه أربعة من النساء وبنى لكل واحدة منهن بيتًا بجوار بيته ولكن الله لم يشأ أن يرزقه بالأولاد، كان يحمد الله كثيرًا على كل شيء، حتى على حرمانه من الذرية وأدرك حكمة الله بأن

يكون عقيمًا فقد ضاجع كثيرًا من النساء بحجة أخراج الجن منهن، ولكنه تاب من كل هذا وأصبح من الماضي، لقد أدرك يقينًا أنه لن يتوقف عن اقتراف الذنوب مهما حاول وأن الإنسان قد جُبل عن الخطأ ولكن عليه أن يغسل نفسه من هذه الذنوب من حين إلى أخر وألا يجعل الشيطان يقوده إلى التهلكة، عليه ان يقزمه قدر المستطاع، فهذه حرب بين الإنسان والشيطان لا تنتهي إلا بالموت، كان كثيرًا ما يسأل الله أن يختم حياته ساجدًا أو قارئًا للقرآن، كانت حياته هادئة مريحة ونفسه راضية مطمئنة، أدرك أن تلك هي السعادة الحقيقية، ذلك هو الرضا الذي كان يبحث عنه طوال سنين عمره، أن تسلم أمرك إلى الله يفعل بك ما يشاء إلى أن تلقاه وهو راضٍ عنك كل الرضا، كان ما يقض مضجعه من حين إلى أخر ذلك الكابوس المرعب الذي يرى فيه نفسه يذبح ذلك الصبي عبد الرحمن فيفجعه لون الدم الإرجواني ويرى أنه يذبح نفسه فتتدلى رأسه تحت قدميه وهو ينظر إليها، كان ينتفض والعرق يتصبب من رأسه حتى أخمص قدميه، لكنه سرعان مايذكر الله ويبعد الشيطان من رأسه، لم يعد للشيطان عليه من سلطان بعد الآن لقد قهره عمر بعزمه، كان يحمد الله كثيرًا أن أمهله مزيدًا من الوقت ليكون على هذا الحال، وها هو الآن أمام رهط من الأطفال يعلمهم حفظ القرآن وقد تجاوز الستين من عمره، وكان ما جعله يتذكر تلك الأيام الغابرة هو مجئ صبي في السادسة من عمره، كان يريد أن ينضم إلى باقي الصبية كي يتعلم عنده حفظ القرآن، كان

الصبي حسن الوجه رقيق الملامح ذو خدين ورديين، كان يشبه إلى حد بعيد أخته مريم، كان يحمل نفس الروح ونفس الوجه، فسأله عمر عن أسمه، فأخبره الصبي أن أسمه (إمحمد)، فسأله عن أسم أبيه فقال الصبي، أسمى (إمحمد) عمر خليفة، لم يجرؤ على أن يسأله المزيد عن عائلته وكأنه يحتاج لبعض الوقت كي يمني نفسه ويحلم أن يكون هذا الصبي أحد أحفاد أخته مريم التي لم يراها منذ خروجه وهو صغير من (ترهونة)، سأل نفسه أيعقل أن ألتقي بهم بعد كل هذا الوقت، تذكر أخيه عبد الله وأبويه فدمعت عيناه، ولا أحد يعلم إن كان ذلك الصبي أحد أحفاد مريم أم لا أو إن كان قد ألتقى بها، الله وحده يعلم ذلك

غصغوغ

قفشبمظ؟ظب ٠ ،ب ×طيم÷بت ×طيمظفبق

نبذة عن الكاتب

يوسف عبد القادر

• ولد في 23 فبراير عام 1977 في ليبيا في مدينة طرابلس
• أتم مراحل التعليم الأولية في بلدية الفلاح شمال العاصمة طرابلس وكانت مرحلة الثانوية في مدرسة قرجي الثانوية
• التحق بعد ذلك إلى جامعة طرابلس الكبرى بكلية الآداب حيث تحصل على درجة الليسانس في اللغة الفرنسية
• وبعد اندلاع الثورة الليبية بسنة تحصل على منحة لدراسة اللغة الفرنسية في جامعة السوربون ..

للتواصل مع الكاتب
www.facebook.com/youssef.mahamed.3